التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة العنكبوت

الدكتور
محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

١

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة وتمهيد

١ — سورة العنكبوت هى السورة التاسعة والعشرون فى ترتيب المصحف وكان نزولها بعد سورة الروم ، أى : أنها من أواخر السور المكية فى النزول، إذ أن ترتيبها فى النزول الثالثة والثمانون من بين السور المكية ، ولم ينزل بعدها قبل الهجرة سوى سورة المطففين(١) وعدد آياتها تسع وستون آية .

٢ — وجمهور العلماء على أنها مكية ، ومنهم من يرى أن فيها آيات مدنية .

قال الآلوسى : عن ابن عباس أنها مكية وذهب إلى ذلك ـ أيضا ـ الحسن وجابر وعكرمة . وعن بعضهم أنها آخر مانزل بمكة ... وقال يحيى بن سلام: هى مكية ، إلا من أولها إلى قوله ـ تعالى ـ : « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين . . . »(٢) .

والذى تطمئن إليه النفس أن سورة العنكبوت كلها مكية ، وليس هناك روايات يعتمد عليها فى كون بعض آياتها مدنية .

٣ — وقد افتتحت سورة العنكبوت ببعض الحروف المقطعة « الم » ، ثم تحدثت عن تكاليف الإيمان ، وأنه يستلزم الإمتحان والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وعن العاقبة الحسنة التى أعدها ـ سبحانه ـ لعباده المؤمنين الصادقين ، قال ـ تعالى ـ : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » .

---

(١) راجع كتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٣٢ .

٤ — ثم حكت جانبا من أقوال المشركين، ومن دعاواهم الكاذبة، وردت عليهم بما يبطل أقوالهم، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم . . .

قال - تعالى - : وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .

٥ — ثم إنتقلت السورة الكريمة بعد ذلك، إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، فأشارت إلى قصة نوح مع قومه، ثم ذكرت بشيء من التفصيل جانبا من قصة إبراهيم مع قومه، ومن قصة لوط مع قومه وأتبعت ذلك بإشارات مركزة تتعلق بقصة شعيب وهود وصالح وموسى مع أقوامهم . . .

ثم ختمت هذه القصص ببيان العاقبة السيئة التي صار إليها المكذبون لرسلهم، فقال - تعالى - : « فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

٦ — ثم ضربت السورة الكريمة مثلا لحال الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة، فشبهت ماهم عليه من كفر وشرك - في ضعفه وهوانه وهلهلته - ببيت العنكبوت، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، أن يزدادوا ثباتا على ثباتهم، وأن يستعينوا على ذلك بتلاوة القرآن الكريم، وبإقامة الصلاة، وبالإكثار من ذكر الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : « اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ماتصنعون » .

٧ — ثم أمرت السورة الكريمة المؤمنين بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وأرشدتهم إلى ما يقولونه لهم، ومدحت

من يستحق المدح منهم ، وذمت من يستحق الذم ، وأقامت الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ .

قال ـ سبحانه ـ : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون . وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

٨ — ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى المؤمنين ، حضهم فيه على الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإيمان ، ورغبهم في ذلك بوسائل منها : إخبارهم بأن الآجال بيده الله ـ تعالى ـ وحده ، وكذلك الأرزاق بيده وحده ، وأن من استجاب لما أمره الله ـ تعالى ـ به ، أعطاه ـ سبحانه ـ الكثير من خيره وفضله .

قال ـ تعالى ـ : « ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياى فاعبدون ، كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون . . » .

٩ — ثم ساق ـ سبحانه ـ في أواخر السورة ، ألوانا من تناقضات المشركين حيث إنهم إذا سألهم سائل عن خلق السموات والأرض . . . قالوا : الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقهما ، ومع ذلك فهم يشركون معه في العبادة آلهة أخرى ، وإذا أحاط بهم الموج وهم في السفن . . . دعوا الله مخلصين له الدين « فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » ، وهم يعيشون في حرم آمن والناس يتخطفون من حولهم . . ومع ذلك فهم بالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون .

هذا شأنهم ، أما المؤمنون الصادقون فقد وعدهم الله ـ تعالى ـ بما يقر أعينهم فقال في ختام السورة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

١٠ — وهكذا نرى هذه السورة الكريمة ، وقد حدثتنا ـ من بين ما حدثتنا ـ عن الإيمان وتكاليفه ، وعن سنن الله في خلقه ، وعن قصص بعض الأنبياء

مع أقوامهم ، وعن هوان الشرك والشركاء وعما يعين المؤمن على طاعة الله ، وعن علاقة المؤمنين بغيرهم ، وعن البراهين الساطعة الناطقة بأن هذا القرآن من عند الله ، وعن أن المؤمن لا يليق به أن يقيم فى مكان لا يستطيع فيه أن يؤدى شعائر دينه ، وعن سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار . . نسأل الله — تعالى — أن يجعلنا جميعا من عباده الأخيار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة : مدينة نصر

١٦ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

٦ / ٣ / ١٩٨٥ م

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ
اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا
يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ
الَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

سورة العنكبوت من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى « ألم »، ويبلغ عدد السور التى افتتحت بحروف التهجى، تسعا وعشرين سورة.

وقد سبق أن قلنا : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور، على سبيل الإيقاظ والتنبيه، للذين تحداهم القرآن الكريم، فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون

منه كلامكم، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله، فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك . .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» للإنكار و«حسب» من الحسبان بمعنى الظن . وقوله : «يفتنون» من الفتن، بمعنى الاختبار والامتحان .

يقال : فتنت الذهب بالنار، أى : أدخلته فيها لتعلم الجيد منه من الخبيث .

وجملة «أن يتركوا» سدت مسد مفعولى حسب، وجملة «أن يقولوا» فى موضع نصب، على معنى : لأن يقولوا، وهى متعلقة بقوله : «يتركوا» وجملة «وهم لا يفتنون» فى موضع الحال من ضمير «يتركوا» .

والمعنى : أظن الناس أن يتركوا بدون إمتحان، واختبار، وابتلاء، وبدون نزول المصائب بهم، لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان؟إن ظنهم هذا ظن باطل، ووهم فاسد، لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الإبتلاء والاختبار، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

قال القرطبى : والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش ابن ربيعة، والوليد بن الوليد ... فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده، اختبار للمؤمنين وفتنة .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو مافى معناه من الأقوال ، فهى باقية فى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، موجود حكمها بقية الدهر . . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » مؤكد لما قبله من أن ظن الناس أن يتركوا بدون ابتلاء ، لقولهم آمنا ، هذا الظن فى غير محله ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، وأن يجعل الكافرين يتصارعون مع المؤمنين ، إلا أن العاقبة فى النهاية للمؤمنين .

والمقصود بقوله - تعالى - : « فليعلمن ... » إظهار علمه - سبحانه - ، أو المجازاة على الأعمال .

أى : ولقد فتنا الذين من قبل هؤلاء المؤمنين من أصحابك - أيها الرسول الكريم - ، « فليعلمن الله الذين صدقوا .. » أى : فليظهرن الله - تعالى - فى عالم الواقع حال الذين صدقوا فى إيمانهم ، من حال الكاذبين منهم ، حتى ينكشف للناس ما هو غائب عن علمهم .

أو المعنى : ولقد فتنا الذين من قبلهم من المؤمنين السابقين . كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم ، فليجزين الذين صدقوا فى إيمانهم بما يستحقون من ثواب ، وليجزين الكاذبين بما يستحقون من عقاب ، وأقام المجازاة على العلم ، أقام السبب مقام المسبب .

قال الإمام ابن جرير : قوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا . . » أى : فليعلمن الله الذين صدقوا منهم فى قولهم آمنا . وليعلمن الكاذبين منهم فى

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٦٤ .

قولهم ذلك، والله عالم بذلك منهم، قبل الاختبار، وفى حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وليظهرن الله صدق الصادق منهم فى قوله آمنا بالله، من كذب الكاذب منهم...

وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين، عذبهم المشركون، ففتن بعضهم، وصبر بعضهم على أذاهم، حتى أتاهم الله بفرج من عنده»(١)

وفى معنى هاتين الآيتين وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : «أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين»(٢)،

وقوله - سبحانه - : «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم»(٣).

وقد ساق الإمام القرطبى عند تفسيره لهاتين الآيتين - من سورة العنكبوت - عددا من الأحاديث النبوية، منها قوله: وروى البخارى عن خباب بن الأرت قالوا: شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟

فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه، فما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٤).

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٠ ص ٨٣.
(٢) سورة التوبة. الآية ١٦ (٣) سورة محمد. الآية ٣١.
(٤) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٢٤.

والخلاصة ، أن المقصود من الآيتين تنبيه الناس فى كل زمان ومكان ، إلى أن ظن بعض الناس بأن الإيمان يتعارض مع الابتلاء بالبأساء والضراء ظن خاطىء ، وإلى أن هذا الابتلاء سنة ماضية فى السابقين وفى اللاحقين إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - أن عقابه للمرتكبين للسيئات واقع بهم ، وأنهم إذا ظنوا خلاف ذلك ، فظنهم من باب الظنون السيئة القبيحة ، فقال -تعالى-: « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، ساء ما يحكمون » .

و « أم » هنا منقطعة بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ . وقوله : « أن يسبقونا » سادمسد مفعولى حسب . وأصل السبق : الفوت والتقدم على الغير . والمراد به هنا : التعجيز والمعنى : بل أحسب الذين يعملون الأعمال السيئات كالكفر والمعاصى ، « أن يسبقونا » أى : أن يعجزونا فلا نقدر على عقابهم ، أو أن فى إمكانهم أن يهربوا من حسابنا لهم ؟

إن كانوا يظنون ذلك فقد : « ساء ما يحكمون » أى : بئس الظن ظنهم هذا ، وبئس الحكم حكمهم على الأمور .

فساء بمعنى بئس ، و « ما » موصولة و « يحكمون » صلتها ، والعائد محذوف ، والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدخل السرور والاطمئنان على قلوب عباده المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : « من كان يرجو لقاء الله ، فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم » .

أى : من كان من الناس يرجو لقاء الله - تعالى - يوم القيامة لقاء يسره ويرضيه ، ويطمعه فى ثوابه وعطائه ، فليثبت على إيمانه ، وليواظب على العمل الصالح ، « فإن أجل الله لآت » .

أى : فإن الأجل الذى حدده الله — تعالى — لموت كل نفس وللبعث والحساب ، لآت لا محالة فى وقته الذى حدده — سبحانه — ، وهو السميع ، لأقوال خلقه ، العليم ، بما يخفونه وما يعلنونه :

فالرجاء فى لقاء الله ، بمعنى الطمع فى ثوابه ، ومنهم من فسره بمعنى الخوف من حسابه — سبحانه — .

قال صاحب الكشاف : لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد أطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب ، لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها . . وقيل : « يرجو » يخاف ، كما فى قول الشاعر :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها . . (١) أى : إذا لسعته النحل لم يخف لسعها .

وعلى كلا التفسيرين للرجاء ، فإن الآية الكريمة تبشر المؤمنين بما يدخل السرور على نفوسهم ، وتعدهم بأنهم متى ثبتوا على إيمانهم ، وأحسنوا أعمالهم ، فإن ثوابهم سيظفرون به كاملا غير منقوص ، بفضل الله وإحسانه .

وقوله — سبحانه — : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : ومن جاهد فى طاعة الله ، وفى سبيل إعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، فإنما يعود ثواب جهاده ونفعه لنفسه لا لغيره .

« إن الله » — تعالى — « لغنى عن العالمين » جميعا ، لأنه — سبحانه — لا تنفعه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠٢ .

طاعة مطيع ، كما لا تضره معصية عاص ، وإنما لنفسه يعود ثواب المطيع ، وعليها يرجع عقاب المسىء .

ثم وضح - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب جزيل فقال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم . . ، أى : لنسترن عنهم سيئاتهم ، ولنزيلنها - بفضلنا وإحساننا - من صحائف أعمالهم .

ثم بعد ذلك ، ولنجزينهم أحسن الذى ، كانوا يعملون،أى :ولنجزينهم بأحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا ، بأن نعطيهم على الحسنة عشر أمثالها .

قال الجمل ماملخصه : قوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات . . » يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ، والخبر جملة القسم المحذوفة ، وجوابها أى : والله لنكفرن . ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر على الاشتغال. أى: ونخلص الذين آمنوا من سيئاتهم .

وقال « بأحسن » لأنه — سبحانه — إذا جازاهم بالأحسن ، جازاهم بما هو دونه ، فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى »(١)

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٦٨

ثم بين — سبحانه — أن طاعة الله — تعالى — يجب أن تقدم على كل طاعة . فقال :

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما أخرجه الترمذى ، من أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه حين أسلم ، قالت له أمه حمنة بنت أبى سفيان : يا سعد بلغنى أنك صبأت ، فوالله لا يظلنى سقف

بدعه ، وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد (صلى الله عليه وسلم ... فجاء سعد إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) فشكى إليه ما قالته أمه .

فنزلت هذه الآية . فجاء سعد إليها فقال لها : ياأماه لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى . فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى . فلما يئست منه أكلت وشربت .» (١) .

وقوله : «حسنا» منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف . أى : ووصينا الإنسان بوالديه إيصاء حسنا ، وعبر بالمصدر للمبالغة فى وجوب الإحسان إليهما ، بأن يكون بارا بهما ، وعطوفا عليهما ، وسخيا معهما .

وقوله — سبحانه — : «وإن جاهدك ..» معطوف على ماقبله بإضمار القول ، أى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له «إن جاهداك» أى : إن حملاك وأمراك «لتشرك بى» فى العبادة أو الطاعة «ماليس لك به علم فلا تطعهما» فى ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق :

وقوله — سبحانه — : «ماليس لك به علم» بيان للواقع ، فهذا القيد لامفهوم له ، لأنه ليس هناك من إله فى هذا الكون ، سوى الله — عز وجل .

وقوله — تعالى — : «إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون» تذييل المقصود به التحذير من معصيته — سبحانه — .

أى : إلى مرجعكم جميعا — أيها الناس — يوم القيامة ، فأحاسبكم على أعمالكم حسابا دقيقا ، وأجازى الذين أساءوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٢٨

« والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات لندخلنهم » بفضلنا وإحساننا « فى الصالحين » أى ، فى زمرة الأقوام « الصالحين » الذين رضينا عنهم ، ورضوا عنا .

• • •

ثم يرسم القرآن الكريم بعد ذلك صورة واضحة لأصحاب القلوب المريضة ، والنفوس الضعيفة ، ويحكى جانبا من أقوالهم الفاسدة ، ودعاواهم الكاذبة .

وقوله — سبحانه : « ومن الناس من يقول آمنا بالله . . » بيان لحال قوم ضعف إيمانهم ، واضطرب يقينهم ، بعد بيان حال المؤمنين الصادقين فى قوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » .

قال القرطبى : قوله ـ تعالى ـ : « ومن الناس من يقول آمنا بالله . . » قال مجاهد : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك ، وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر ، فقتل بعضهم » (١) .

والمعنى : « ومن الناس من يقول » بلسانه دون أن يواطئ هذا القول قلبه « آمنا بالله » .

وقوله « فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » بيان لحال هذا البعض من الناس عند ما تنزل بهم المصائب والنكبات .

أى : فإذا أوذى هذا البعض ـ بعد قوله آمنا بالله ـ من أجل هذا القول

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٣٠

ومن أجل تركه الدين الباطل ، ودخوله فى الدين الحق «جعل فتنة الناس» له أى جعل عذابهم له ، وإيذائهم إياه «كعذاب الله» أى بمنزلة عذاب الله فى الشدة والألم ، فيترتب على ذلك أن يتزلزل إيمانه ، ويضعف يقينه بل ربما رجع إلى الكفر بعد الإيمان .

وفى جعل هذا البعض «فتنة الناس كعذاب الله» دليل واضح على ضعف إيمانه ، وفساد تفكيره ، لأن عذاب الناس له دافع ، أما عذاب الله فلا دافع له ، ولأن عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، أما عذاب الله فهو بسبب غضب الله — سبحانه — على من عصاه ، ولأن عذاب الناس معروف أمده ونهايته أما عذاب الله فلا يعرف أحد مداه ونهايته .

ثم بين سبحانه - حال هذا الفريق ، إذا مامن الله - تعالى - على المؤمنين الصادقين ، بنصر ، فقال : «ولئن جاء نصر من ربك ، ليقولن إنا كنا معكم» .

والضمير فى قوله : «ليقولن» بضم اللام - يعود إلى «من» فى قوله: «من يقول» باعتباره معناها ، كما أن أفراد الضمائر العائدة إليها باعتبار لفظها .
أى : هكذا حال ضعاف الإيمان ، عند الشدائد يساوون عذاب الناس بعذاب الله ، ولا يثبتون على إيمانهم . أما إذا جاءكم النصر — أيها الرسول الكريم — فإن هؤلاء الضعاف فى إيمانهم ، يقولون بكل ثقة وتأكيد : إنا كنا معكم مشايعين ومؤيدين ، ونحن إنما أكرهنا على ما قلنا ، وما دام الأمر كذلك فأشركونا معكم فيما ترتب على النصر من مغانم وخيرات .

وقوله — سبحانه — : «أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين» رد عليهم فى دعواهم الإيمان ، وفى قولهم للمؤمنين : إنا كنا معكم . والاستفهام لإنكار ما زعموه ، ولتقرير علم الله — تعالى — الشامل للسر والعلانية .

أى : إن الله - تعالى - عالم بما فى صدور العالمين جميعا من خير وشر ، وإيمان وكفر ، وإن هؤلاء الذين يقولون آمنا ، ليس الله - تعالى - فى حاجة

إلى قولهم ، فهو - سبحانه - يعلم السر وأخفى : «وليعلمن الله» - تعالى- علما تاما «الذين آمنوا» به حق الايمان «وليعلمن» حال المنافقين ، علما لا يخفى عليه شيء من حركاتهم وسكناتهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب ، وأكد — سبحانه — علمه بلام القسم وبنون التوكيد ، للرد على دعاوى ضعاف الايمان بأقوى أسلوب ، وأبلغه ، حتى يقلعوا عن نفاقهم ، ويتبعوا المؤمنين الصادقين فى ثباتهم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مازعمه أئمة الكفر من دعاوى باطلة ورد عليها فقال : «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم»

أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا على سبيل التضليل والاغراء: إتبعوا سبيلنا أى طريقنا الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، ولنحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة ، إن كان هناك بعث وحساب .

واللام فى قوله : «ولنحمل» لام الأمر ، كأنهم آمرين أنفسهم بذلك ، ليغروا المؤمنين باتباعهم .

أى : اطمئنوا إلى أننا لن نتخلى عنكم ، ولن ننقض عهودنا معكم فى حمل خطاياكم لو اتبعتمونا أو هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء ، أى : إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم .

وقد رد الله - تعالى - زعمهم هذا بقوله : «وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون» أى : وما هؤلاء الكافرين بحاملين لشيء من خطايا غيرهم التى زعموا حملها يوم القيامة ، وإنهم لكاذبون فى كل أقوالهم .

و «من» الأولى بيانية ، والثانية لنفى حمل أى خطايا مهما صغرت ، وقد جاء التكذيب لهم بهذا الأسلوب المؤكد ، حتى يخرس ألسنتهم ويمحو كل أثر من أقوالهم من الأذهان .

ثم بين - سبحانه - أن الأمر على عكس ما زعموه فقال : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم .

أى : ليس الأمر - كما زعموا من أنهم يحملون خطايا المؤمنين، بل الحق أن أئمة الكفر هؤلاء سيحملون خطاياهم كاملة غير منقوصة، وسيحملون فوقها خطايا أخر ، هى خطايا تسببهم فى إضلال غيرهم ، وصرفه عن الطريق الحق .

وعبر عن الخطايا بالأثقال ، للاشعار بغاية ثقلها ، وفداحة حملها ، وعظم العذاب الذى سيترتب عليها .

« وليسألن يوم القيامة » سؤال تأنيب وتوبيخ « عما كانوا يفترون » أى : أى عما كانوا يختلقونه فى الدنيا من أكاذيب ، وأباطيل ، أدت بهم إلى سوء المصير .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح : من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الاثم ، مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا »(١) .

• • •

وبعد هذا الحديث عن أنواع الناس ، وعن أقوال المشركين الفاسدة ، وعن سوء عاقبتهم ، ساق - سبحانه - جانبا من قصة نوح وإبراهيم - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٧٧ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ
سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَصْحَٰبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَا ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ
وَاشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

قال الآلوسى : قوله : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » . شروع فى بيان افتتان الأنبياء - عليهم السلام - بأذية أممهم ، اثر بيان المؤمنين بأذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثالهم على الصبر ، فإن الأنبياء - عليهم السلام - حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها ، فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى .. »(١) .

و « نوح » - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها شىء من التفصيل ، فى سور : هود ، والأعراف ، والمؤمنون ، ونوح .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٤٢ .

وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا المجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم نوحا ، ليدلهم على طريق الحق والرشاد .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن عبادة غيرنا ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى الدين الحق ، ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قالوا : بعث الله نوحا وهو فى سن الأربعين من عمره ، ولبث يدعو قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فيكون عمره كله ألف سنة وخمسين سنة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام ؟ قلت : لأن تكرير اللفظ الواحد ، حقيق بالاجتناب فى البلاغة ، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك »(١) .

والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح - عليه السلام - مع قومه ، تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتثبيته ، فكأن الله - تعالى - يقول له : يا محمد لقد لبث أخوك نوح تلك المدة الطويلة ، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ، فعليك أن تقتدى به فى صبره ، وفى مطاولته لقومه .

وقوله - سبحانه - : فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، بيان لسوء عاقبة المكذبين لنوح - عليه السلام - بعد أن مكث فيهم تلك المدة الطويلة .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٤٦ .

والطوفان : قد يطلق على كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام ، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء ، وهو المراد هنا .

أى مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ولكنهم كذبوه ، فأخذهم الطوفان ، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم الكفر ، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح ومن آمن معه فقال : « فأنجيناه وأصحاب السفينة : » أى : فأنجينا نوحا ومن آمن معه ، وهم الذين ركبوا معه فى السفينة . قيل : كان عدد هؤلاء الذين آمنوا به ثمانين ما بين ذكر وأنثى وقيل : كانوا أقل من ذلك :

والضمير فى قوله - سبحانه - : « وجعلناها آية للعالمين » للسفينة ، أو للحادثة والقصة .

أى : فأنجينا نوحا ومن ركب معه فى السفينة ، وجعلناها أى هذه الحادثة عبرة وعظة للعالمين ، حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر والظلم على مر الأيام والأعوام .

قالوا : ومن مظاهر وجوه العبرة فى قصة نجاة نوح ومن معه : أن السفينة التى حملتهم وأقلتهم بقيت مدة طويلة ، وهى مستقرة على جبل الجودى ، الذى يرى كثير من المؤرخين أن مكانه بشمال العراق ، بالقرب من مدينة الموصل .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة إبراهيم - عليه السلام — مع قومه ، فقال — تعالى — : وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه . . »

ولفظ « إبراهيم » منصوب بفعل مضمر . أى : واذكر - أيها المخاطب - إبراهيم - عليه السلام - وقت أن قال لقومه : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه « ذلكم » الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى

« خير لـكم » من الشرك ، ومن كل شيء في هذه الحياة «إن كنتم تعلمون » أي : إن كنتم من ذوي العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - قد بدأ دعوته لقومه بأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع ، الذي يتنافى مع الجهل .

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل فقال-كما حكى القرآن عنه : « إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا » .

والأوثان : جمع وثن ، وتطلق الأوثان على التماثيل والأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو ما يشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله — تعالى — .

وقوله : « وتخلقون إفكا » أي : وتكذبون كذبا واضحا ، حيث سميتم هـــذه الأوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغني عنكم ولا عن نفسها شيئا .

أو يكون قوله «وتخلقون» بمعنى وتصنعون وتنحتون . أي : وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنما . من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل ما هو حق إلى كل ما هو باطل .

ثم بين لهم تفاهة هذه الأوثان فقال : «إن الذين تعبدون من دون الله» من أوثان وأصنام « لا يملكون لكم رزقا » أي : لا يملكون لـكم شيئا من الرزق حتى ولو كان غاية في القلة .

وما دام الأمر كذلك : « فابتغوا عند الله — »تعالى— وحده «الرزق» الذي يكفيكم ويغنيكم « واعبدوه » وحده — سبحانه — «واشكروا له» نعماءه ومننه وعطاياه .

فأنتم وجميع الخلق «إليه» وحده «ترجعون» لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم وهكذا نرى إبراهيم - عليه السلام - قد سلك في دعوة قومه إلى الحق أبلغ الأساليب وأحكمها، حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه، وبين لهم منافع ذلك، وحرضهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل، ونفرهم من عبادة الأوثان، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها، وعجزها، وحضهم على طلب الرزق ممن يملكه وهو الله — عز وجل — الذي إليه المرجع والمآب.

ثم أخذ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يحذر قومه من الاستمرار في تكذيبه ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حساباً وثواباً وعقاباً وبعثاً، وأن عليهم أن يعتبروا بمن قبلهم. فقال — تعالى — :

وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن
قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ
يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ
وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

قال صاحب الكشاف : وهذه الآية — وهى قوله — تعالى — : وإن تكذبوا والآيات التى بعدها إلى قوله : « فما كان جواب قومه . . . » محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم — صلوات الله عليه — لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشأن قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها .

فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم ، فما المراد بالأمم من قبله ؟ قلت : المراد بهم قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمة فى معنى أمم جمة مكذبة . . . » (١) .

وقال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات ، من كلام إبراهيم الخليل — عليه السلام — ، يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : « فما كان جواب قومه » (٢) .

وقوله — سبحانه — : « وإن تكذبوا . . . » معطوف على محذوف ، والتقدير : إن تطيعونى — أيها الناس — فقد فزتم ونجوتم ، وإن تكذبونى فيما أخبرتكم به ، فلستم بدعا فى ذلك ، فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم . فكانت عاقبة المكذبين خسرا .

ثم بين لهم إبراهيم - عليه السلام - وظيفته فقال : «وما على الرسول إلا البلاغ المبين» أى : لقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربى ، وليس على سواها ، أما الحساب والجزاء فرده إلى الله تعالى وحده .

ثم ساق — سبحانه — ما يدل على أن البعث حق ، وأنه - تعالى - لا يعجزه شىء ، فقال : « أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده » .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٤٧
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٠

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة والواو للعطف على مقدر :

والمعنى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله - تعالى - الخلق ابتداء ، ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة وهى أهون عليه ،

إنهم ليرون كيف يبدىء الله الخلق فى النبتة النامية ، وفى الشجرة الباسقة ، وفى كل مالم يكن ثم بعد ذلك يكون ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى ، مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء ؟

فالآية الكريمة تقرعهم على إنكارهم البعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على إمكانيته .

واسم الاشارة فى قوله : «إن ذلك على الله يسير» يعود إلى ماذكر من الأمرين وهما : بدء الخلق وإعادته إلى الحياة مرة أخرى .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

ثم أمر - سبحانه - رسوله أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر فى أحوال هذا الكون ، لعل هذا التأمل يهديهم إلى الحق فقال : «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . . »

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث : سيحوا فى الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله - تعالى - ابتداء على أطوار مختلفة ، وطبائع متمايزة ، وأحوال شتى ... ثم قل لهم بعد

كل ذلك ، الله الذى خلق الخلق ابتداء على تلك الصورة المتنوعة والمتكاثرة ، هو وحده الذى « ينشىء النشأة الآخرة » أى : هو وحده الذى ينشئهم ويخلقهم ويعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن أوجدهم فى المرة الأولى.

لجملة « ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » معطوفة على قوله : « سيروا .. » وداخلة معها فى حيز القول .

والكيفية فى هذه الآية باعتبار . بدء الخلق على أطوار شتى ، وصور متعددة . .

وفى الآية السابقة وهى قوله : « أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده . » باعتبار بدء الخلق من مادة وغيرها .

والمقصود بالأمر بالسير : التدبر والتأمل والاعتبار ، لأن من شأن التنقل فى جنات الأرض ، أنه يوقظ الحس ، ويبعث على التفكر ، ويفتح العين والقلب على المشاهدة الجديدة التى لم تألفها العين ولم يتأملها القلب قبل ذلك

وجاء الأمر بالسير عاما ، لأن كل إنسان ـ فى كل زمان ومكان ـ يأخذ من وجوه العبرة والعظة - عن طريق هذا السير ـ ما يتناسب مع عقله وثقافته وبيئته ، وفكره ، ومستواه المادى ، والاجتماعى ، والحضارى .

وقوله ـ سبحانه ـ « إن الله على كل شىء قدير » تعليل لما قبله . أى : هو ـ سبحانه ـ قادر على النشأة الأولى ، وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لا يعجزها شىء ، ولا يحول دون نفاذها حائل .

وهو ـ سبحانه ـ « يعذب من يشاء » تعذيبه « ويرحم من يشاء » رحمته « وإليه » وحده لا إلى غيره « تقلبون » أى : ترجعون جميعا فيحاسبكم على أعمالكم .

« وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء »أى : وما أنتم -أيها الناس- بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله — تعالى — ومن حسابه ، سواء أكنتم فى الأرض ، أم كنتم فى السماء ، إذ ليست هناك قوة فى هذا الوجود تحول بينكم وبين الانقلاب إليه - سبحانه - ، والوقوف بين يديه للحساب والجزاء .

قال الشوكانى : « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء،قال الفراء : ولا من فى السماء بمعجزين الله فيها »... والمعنى : أنه لا يعجزه - سبحانه - أهل الأرض ولا أهل السماء فى السماء لوكنتم فيها كما تقول : لا يفوتنى فلان هاهنا ولا بالبصرة يعنى : ولا بالبصرة لو صار إليها ... »(١) .

وقوله — سبحانه — : « ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » مؤكد لما قبله . أى : لستم بقادرين على الهرب من لقاء الله — تعالى — فى الآخرة ، وليس سواه من ناصر ينصركم ، أو من قريب يدفع عنكم حكمه وقضاءه — سبحانه — .

ثم بين — سبحانه — مصير الكافرين فقال : « والذين كفروا بآيات الله » الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى ذاته وصفاته ...

وكفروا — أيضاً — بالأدلة الدالة على « لقائه » بأن أنكروا البعث والحساب والجزاء « أولئك » الذين كفروا بكل ذلك « يئسوا من رحمتى »أى: انقطع أملهم فى رحمتى إياهم انقطاعا تاما وعبر — سبحانه — بالماضى لدلالة على التام على تحقق وقوع هذا اليأس ، وفقدان الأمل عند هؤلاء الكافرين وقت أن يقفوا بين يديه للحساب ، بسبب كفرهم وسوء أعمالهم .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ١٩٨ .

وأضاف – عز وجل – الرحمة إليه، للإشارة إلى سبقها لغضبه، وأنها تشمل عباده المؤمنين.

«وأولئك» أي: الذين كفروا بآيات الله وبلقائه «لهم عذاب أليم» لا يعلم مقدار شدته وفظاعته إلا هو – سبحانه –.

* * *

ثم قص – سبحانه – بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم له، وما رد به عليهم. فقال – تعالى –:

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

فقوله – تعالى –: «فما كان جواب قومه...» بيان لما رد به الظالمون

على نبيهم إبراهيم — عليه السلام — بعد أن وعظهم ونصحهم وأقام لهم أوضح الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

ولفظ « جواب » بالنصب ، خبر كان ، واسمها قوله : « إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه » .

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل .

وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، للاشعار بأن من قومه من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا جميعا على الإحراق ، كما جاء فى قوله — تعالى — « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو احرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، وتحطيمه لها ...

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم فى الظلم والطغيان والجهالة . . .

والفاء فى قوله - تعالى - « فأنجاه الله من النار » فصيحة . أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار ، وألقوه فيها بعد اشتعالها ، فأنجاه الله - تعالى - منها ، بأن جعلها بردا وسلاما عليه . •

« إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » أى : إن فى ذلك الذى فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم — عليه السلام - حيث أخرجناه سالما من النار « لآيات » بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يؤمنون ، بأن الله - تعالى - هو رب العالمين ، وأنه له الخلق والأمر .

وجمع — سبحانه — الآيات ، لأن فى نجاة إبراهيم ، دلالات متعددة على قدرة الله — تعالى — لا دلالة واحدة ، فنجاته من النار وتحويلها عليه إلى برد وسلام آية وعجز المشركين جميعاً عن أن يلحقوا به ضرراً آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم مع ما شاهدوه ، آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة تبقى على جحودها حتى مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله — تعالى — .

ولذا خص — سبحانه — هذه الآيات ، لأنهم هم وحدهم المنتفعون بها .

ثم حكى — سبحانه — ما قاله إبراهيم — عليه السلام — لقومه بعد أن نجاه الله من شرورهم فقال : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا ، مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا .

ولفظ « مودة » وردت فيه قراءات فقد قرأه بعض القراء السبعة بالنصب ، على أنه مفعول به لقوله : « اتخذتم » أو على أنه مفعول لأجله ، فيكون المعنى .

وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقيدة واقتناع بأحقية عبادتها ، وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم ، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضا فى عبادتها ، على حساب الحق والهدى .

وهذا شأنكم فى الدنيا ، أما فى يوم القيامة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، حيث يتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة « ومأواكم النار » أى : ومنزلكم الذى تأوون إليه أنتم وأصنامكم يوم القيامة النار « وما لكم من ناصرين »

يخلصونكم من هذه النار، أو يخففوا سعيرها عنكم.

وبعض القراء السبعة قرأ لفظ «مودة» بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. أي: أن ما اتخذتموه من عبادة الأوثان، هو مودة بينكم فى الحياة الدنيا، أما فى الآخرة فسيكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضا.

والمقصود من الآية الكريمة، بيان أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا الأصنام آلهة، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما، وإنما اتخذوها فى الدنيا آلهة تارة على سبيل التواد فيما بينهم، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم... أما فى الآخرة فستتحول تلك المودات والمسايرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات.

وقوله - تعالى -: «فآمن له لوط..» بيان للثمرة الطيبة التى ترتبت على دعوة إبراهيم لقومه، إلى عبادة الله - تعالى - وحده، بعد أن مكث فيهم مدة لا يعلمها إلا الله، وبعد أن أقام لهم ألوانا من الأدلة على أن ما جاءهم به هو الحق، وما هم عليه هو الباطل.

والتعبير بقوله - سبحانه -: «فآمن له لوط» يشعر بأن لوطا - عليه السلام - وحده، هو الذى لبى دعوة إبراهيم، وصدقه فى كل ما أخبر به.

ولوط - عليه السلام - يرى كثير من العلماء أنه ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - فهو لوط بن هاران ابن آزر.

والضمير فى قوله - سبحانه -: «وقال إنى مهاجر إلى ربى...» يرى بعضهم أنه يعود إلى لوط، لأنه أقرب مذكور.

أى: فآمن لوط لإبراهيم وصدقه فى كل ما جاء به، وقال: إنى مهاجر إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها، لأبلغ دعوته، فهو لم يهاجر من

أجل منفعة دنيوية ، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر ربه ، وإعلاء كلمته .

ويرى آخرون أن الضمير يعود إلى ابراهيم - عليه السلام - ، لأن الحديث عنه .

قال الآلوسي ماملخصه : «وقال إنى مهاجر إلى ربى»أى : وقال إبراهيم إنى مهاجر ، أى : من قومى ، إلى ربى . أى إلى الجهة التى أمرنى بأن أهاجر إليها «أنه» — عز وجل — «وهو العزيز» الغالب على أمره . . «الحكيم» الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة .

وقيل : الضمير فى «وقال» للوط — عليه السلام — ، وليس بشىء لما يلزم عليه من التفكيك» (١) .

ثم بين — سبحانه — بعض النعم التى أنعم بها على نبيه إبراهيم ، بعد أن هاجر من العراق إلى بلاد الشام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس فقال : «ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . . .» .

أى : ووهبنا لإبراهيم - بعد أن هاجر ومعه زوجه «سارة» وابن أخيه لوط - وهبنا له ابنه إسحاق ، ووهبنا لاسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا ، فى ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا فى ذريته — أيضاً — الكتب التى أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالتوراة ، والانجيل ، والزبور ، والقرآن .

فالمراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية التى أنزلها - سبحانه - على موسى وعيسى وداود ومحمد - صلوات الله عليهم - ، وهم جميعاً من نسل إبراهيم

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما بال إسماعيل لم يذكر ، وذكر إسحاق وعقبه ؟

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٥٢

قلت : قد دل عليه فى قوله : « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » وكفى الدليل لشهرة أمره ، وعلو قدره .

فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة ، التى هى : التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن » (١) .

وقوله — سبحانه — : « وآتيناه أجره فى الدنيا » بيان لنعمة أخرى أنعم بها — سبحانه — على نبيه إبراهيم — عليه السلام .

أى : وهبنا له الذرية الصالحة ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتب السماوية ، وآتيناه أجره على أعماله الصالحة فى الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة الصالحة ، والذكر الحسن بعد وفاته .

« وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » الذين سنعطيهم أجزل العطاء وأوفاه .

وهكذا جمع الله — تعالى — بفضله وإحسانه لنبيه إبراهيم ، خيرى الدنيا والآخرة ، جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ، ووفائه فى تبليغ رسالة ربه .

* * *

وبمناسبة الحديث عن قصة إبراهيم مع قومه ، جاء بعد ذلك الحديث عن جانب من قصة لوط مع قومه ، لوط — عليه السلام — الذى آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى بلاد الشام . . . قال — تعالى — :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٥٤

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ
إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟
ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا
لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ
وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا
مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله — سبحانه — : « ولوطا إذ قال لقومه . » منصوب بالعطف على إبراهيم فى قوله — تعالى — : « وإبراهيم إذ قال لقومه . » أو بفعل مضمر . . .

أى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - نبينا لوطا - عليه السلام - وقت أن قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح :

« إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » ، أى : إنكم لتفعلون الفعلة البالغة أقصى دركات القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول من ابتدعها ، وهى إتيان الذكور دون الاناث .

قال عمر بن دينار : « ما نزل ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط » .

وقال الوليد بن عبدالملك : لولا أن الله - تعالى - قد قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا » .

وجاء قوله - عليه السلام - مؤكدا بجملة من المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد إلى ارتكابها .

وقوله - سبحانه - : « أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر . . » بيان لتلك الفاحشة التى كانوا يقترفونها . والاستفهام التأنيب والتقريع .

والسبيل : الطريق ، والنادى : اسم جنس للمكان الذى يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور ، أى : أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء وتقطعون الطريق على المارة ، بأن تنهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم إكراها على ارتكاب الفاحشة معهم ، أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور ، وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات فى مجالسكم الخاصة ، وفى نواديكم التى تتلاقون فيها .

فأنت ترى أن نبيهم - عليه السلام - وقد وصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها ، والباعث لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو هو انتكاس فطرتهم ، وفساد نفوسهم ، وشذوذ شهواتهم .

فماذا كان جوابهم على نبيهم - عليه السلام - ؟ لقد كان جوابهم فى غاية

التبجح والسفاهة ، وقد حكاه القرآن فى قوله : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » .

أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره : ائتنا يالوط بعذاب الله الذى تتوعدنا به ، إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول ، وفى دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا هذه التى ألفناها وأحببناها . . .

وهكذا ترى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نصح نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما فى قوله - تعالى - : « أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون »(١) .

ولذا لجأ لوط - عليه السلام - إلى ربه ، يلتمس منه النصرة والعون فقال : « رب انصرنى على القوم المفسدين » . أى : انصرنى بأن تنزل عذابك على على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على إرتكاب فواحش ، لم يسبقهم فيها أحد من العالمين .

وأجاب الله - تعالى - دعاء نبيه لوط - عليه السلام - ، وأرسل - سبحانه - ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق ، قبل أن ينفذوا عذاب الله فى قوم لوط ، قال - تعالى - :

« ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية . » أى : وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق : قالوا له : يا إبراهيم ، إنا مرسلون من ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهى قرية سدوم التى يسكنها قوم لوط ، والسبب فى ذلك « إن أهلها كانوا ظالمين » ، حيث

---

(١) سورة النمل : الآية ٥٦ .

أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، ولقترفوا في مجالسهم المنكرات .

وهنا قال لهم إبراهيم - عليه السلام - بخشيته وشفقته : « إن فيها لوطا » أى : إن فى هذه القرية التى جئتم لإهلاك أهلها لوطا ، وهو نبى من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها ؟ وهنا رد عليه الملائكة بما يزيل خشيته فقالوا : « نحن أعلم بمن فيها » ، من الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين .

« لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » أى : اطمئن يا إبراهيم فإن الله - تعالى - قد أمرنا أن ننجى لوطا وأن ننجى معه من الهلاك أهله المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع المهلكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها للوط - عليه السلام - ، حيث كانت تقر جرائم قومها ، ولا تعمل على إزالتها وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات .

والغابر : الباقى . يقال : غبر الشىء يغبر غبورا ، أى : بقى : وقد يستعمل فيما مضى - أيضاً - فيكون من الأضداد . ومنه قولهم : هذا الشىء حدث فى الزمن الغابر . أى : الماضى .

ثم بين - سبحانه - حال لوط - عليه السلام - بعد أن وصل إليه الملائكة لينفذوا قضاء الله - تعالى - فى قومه . فقال - عز وجل - : « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ، وضاق بهم ذرعا . . . » .

و « أن » هنا مزيدة لتأكيد المجىء . و « سىء بهم » أى : اعترته المساءة والأحزان بسبب مجيئهم ، لخوفه من اعتداء قومه عليهم .

قال القرطبى : والذرع مصدر ذرع . وأصله أن يذرع البعير بيديه فى

مسيره ذرعها ، على قدر سعة خطوه ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك ، وضعف ومد عنقه ، فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع .. وإنما ضاق ذرعه بهم ، لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه .. »(١) .

أى : وحين جاءت الملائكة إلى لوط - عليه السلام - ورآهم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم . وهو لا يستطيع الدفاع عن هؤلاء الضيوف .

والتعبير بقوله - سبحانه - « وضاق بهم ذرعا » : تعبير بليغ ، وتصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه . وعجزه عن وجود مخرج المكروه الذى حل به . و « ذرعا » تمييز محول عن الفاعل . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

ولاحظ الملائكة - عليهم السلام - على لوط قلقه وخوفه ، فقالوا له على سبيل التبشير وإدخال الطمأنينة على نفسه ، يالوط : « لا تخف ولا تحزن » أى لا تخف علينا من قومك ، ولا تحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة المفاجئة .

ثم أفصحوا له عن مهمتهم فقالوا : « إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين » .

أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من العذاب الذى سننزله بقومك ، إلا امرأتك فسيدركها العذاب مع قومك ، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئها معهم ، ورضاها بأفعالهم القبيحة .

ثم أخبروه بالكيفية التى سينزل بها العذاب على قومه فقالوا : « إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٤ .

والرجز : العذاب الذى يزعج المعذب به ويجعله فى حالة اضطراب وهلع يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج .

أى : إنا منزلون بأمر الله - تعالى - وإرادته ، على أهل هذه القرية - وهى قرية سدوم التى كان يسكنها قوم لوط - « رجزا من السماء » أى : عذابا شديدا كائنا من السماء ، بحيث لا يملكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت . أن يجعل آثار هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : « ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » .

أى : ولقد تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة . تدل على هلاك أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعملون عقولهم فى التدبر والتفكر .

قال ابن كثير : وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال : « ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون . كما قال : وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون »(١) .

• • •

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨٧ .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة شعيب وهود وصالح - عليهم السلام - مع أقوامهم، وكيف أن هؤلاء الأقوام قد كانت عاقبتهم خسرا، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، فقال - تعالى - :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ
يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا
بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

وقوله - سبحانه - : «وإلى مدين أخاهم شعيبا . . .» معطوف على مقدر محذوف، لدلالة ما قبله عليه. ومدين: اسم القبيلة التي تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى معان بين حدود الحجاز والشام وقد أرسل الله - تعالى - إليهم شعيبا - عليه السلام - ليأمرهم بعبادة الله

ـ تعالى ـ وحده ، ولينهاهم عن الرذائل التى كانت منتشرة فيهم ، والتى من أبرزها التطفيف فى المكيال والميزان .

والمعنى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وإبراهيم إلى قومه ، أرسلنا إلى أهل مدين ، رسولنا شعيبا ـ عليه السلام ـ .

«فقال ياقوم اعبدوا الله»أى : فقال لهم ناصحاً ومرشداً ، الكلمة التى قالها كل نبى لأمته: ياقوم اعبدوا الله ـ تعالى ـ وحده ، واتركوا ما أنتم عليه من شرك .

وقال لهم ـ أيضاً ـ : «وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين» أى : اعبدوا الله وحده ، وارجو النجاة من أهوال يوم القيامة ، بأن تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين فإن الإفساد فى الأرض ليس من شأن العقلاء ، وإنما هو من شأن الجهلاء الجاحدين لنعم الله ـ تعالى ـ . يقال : عثى فلان فى الأرض يعثو ويعثى ـ كقال وتعب ـ ، إذا ارتكب أشد أنواع الفساد فيها .

فأنت ترى أن شعيبا ـ عليه السلام ـ وهو خطيب الأنبياء ـ كما جاء فى الحديث الشريف ـ ، قد أمر قومه بإخلاص العبادة لله ، وبالعمل الصالح الذى ينفعهم فى أخراهم ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، فماذا كان موقفهم منه ؟

كان موقفهم منه : التكذيب والإعراض ، كما قال ـ سبحانه ـ : «فكذبوه» أى : فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه .

«فأخذتهم الرجفة» أى : فأهلكهم الله ـ تعالى ـ بسبب تكذيبهم لنبيهم بالرجفة ، وهى الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ، إذا اضطربت اضطراباً شديداً .

ولا تعارض هنا بين قوله ـ تعالى ـ : «فأخذتهم الرجفة» وبين قوله ـ سبحانه ـ فى سورة هود : «فأخذتهم الصيحة» لأنه يجوز أن الله ـ تعالى ـ جعل لإهلاكهم سببين : الأول : أن جبريل ـ عليه السلام ـ صاح بهم

صيحة شديدة أذهلتهم ، ثم رجفت بهم الأرض فأهلكتهم ، وبعضهم قال إن الرجفة والصيحة بمعنى واحد .

وقوله — تعالى — : « فأصبحوا فى دارهم جاثمين » بيان لما آل إليه أمرهم بعد هلاكهم .

والمراد بدارهم : مساكنهم التى يسكنونها ، أوقريتهم التى يعيشون بها وقوله : « جاثمين » من الجثوم ، وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم — من باب ضرب — ، إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

أى : فأصبحوا فى مساكنهم هامـــدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا .

ثم أشار — سبحانه — بعد ذلك إلى مصارع عاد وثمود فقال : « وعادا وثمود وقد تبين لـكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، وكانوا مستبصرين » .

وعاد : هم قوم هود — عليه السلام — ، وكانوا يسكنون بالأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية ، بالقرب من حضرموت .

وثمود : هم قوم صالح — عليه السلام — ، وكانت مساكنهم بشمال الجزيرة العربية ، ومازالت مساكنهم تعرف حتى الآن بقرى صالح :

أى : وأهلكنا عادا وثمود بسبب كفرهم وعنادهم ، كما أهلكنا غيرهم ، والحال أنه قد تبين لكم — يا أهل مكة — وظهر لـكم بعض مساكنهم ، وأنتم تمرون عليهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

فقوله — سبحانه — : « وقد تبين لكم من مساكنهم » المقصود منه غرس العبرة والعظة فى نفوس مشركى مكة ، عن طريق المشاهدة لآثار المهلكين ، فإن مما يحمل العقلاء على الاعتبار مشاهدة آثار التمزيق والتدمير بعد القوة والتمكين .

«وزين لهم الشيطان أعمالهم» السيئة . بسبب وسوسته وتسويله «فصدهم عن السبيل» الحق ، وعن الطريق المستقيم :

«وكانوا» أي : عادا وثمود «مستبصرين» أي : وكانت لهم عقول يستطيعون التمييز بها بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ولكنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، وإنما استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشد ، فأخذهم الله — تعالى — أخذ عزيز مقتدر .

وقوله - تعالى - : «مستبصرين» من الاستبصار ، بمعنى التمكن من تعقل الأمور ، وإدراك خيرها من شرها ، وحقها من باطلها .

ثم أشار - سبحانه - إلى ما حل بقارون وفرعون وهامان فقال : «وقارون وفرعون وهامان» أي : وأهلكنا - أيضاً - قارون ، وهو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم ، كما أهلكنا فرعون الذى قال لقومه : «أنا ربكم الأعلى» ، وهامان الذى كان وزيراً لفرعون وعونا له فى الكفر والظلم والطغيان .

قال الآلوسى : وتقديم قارون ، لأن المقصود تسلية النبى (ﷺ) فيما لقى من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى — عليه السلام - وقد لقى منه ما لقى ، أولأن حال قارون أوفق بحال عاد وثمود ، فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ، ولكنه لم يفده الاستبصار شيئا ، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئا . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - ما جاءهم به موسى - عليه السلام - وموقفهم منه فقال : «ولقد جاءهم موسى بالبينات» أى : جاءهم جميعا بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه .

«فاستكبروا فى الأرض» أى : فاستكبر قارون وفرعون وهامان فى الأرض ، وأبوا أن يؤمنوا بموسى ، بل وصفوه بالسحر وبما هو برىء منه

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٥٨

«وما كانوا سابقين» أى : وما كانوا بسبب استكبارهم وغرورهم هذا ، هاربين أو ناجين من قضائنا فيهم ، ومن إهلاكنا لهم .

فقوله : «سابقين» من السبق ، بمعنى التقدم على الغير ، يقال فلان سبق طالبه ، إذا تقدم عليه دون أن يستطيع هذا الطالب إدراكه .

والمراد أن قارون وفرعون وهامان ، لم يستطيعوا - رغم قوتهم وغناهم - أن يفلتوا من عقابنا ، بل أدركهم عقابنا إدراكا تاما فأبادهم وقضى عليهم .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء المكذبين ، ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ، فقال : «فكلا أخذنا بذنبه . . . .» .

أى : فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح ، وكقارون وفرعون وهامان وأمثالهم : كلا من هؤلاء الظالمين أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه التى أصر عليها دون أن يرجع عنها .

«فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا» أى : فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه ، بأن أرسلنا عليه ريحا شديدة رمته بالحصاة فأهلكته .

قال القرطبى : قوله : «فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا» يعنى قوم لوط ، والحاصب ريح يأتى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار ، وتستعمل فى كل عذاب»(١) .

«ومنهم من أخذته الصيحة» ، كما حدث لقوم صالح وقوم شعيب - عليهما السلام - .

«ومنهم من خسفنا به الأرض» ، وهو قارون ،

«ومنهم من أغرقنا» ، كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه» .

«وما كان الله ليظلمهم» أى : وما كان الله - تعالى - مريداً لظلمهم ، لأنه - سبحانه - اقتضت رحمته وحكمته ، أن لا يعذب أحداً بدون ذنب ارتكبه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٤٤

«ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون» أى: ما ظلم الله - تعالى - هؤلاء المهلكين، ولـكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وعرضوها للدمار، بسبب إصرارهم على كفرهم، وإتباعهم للهوى والشيطان.

وبذلك نرى الآيات قد قصت على الناس مصارع الغابرين، الذين كذبوا الرسل، وحاربوا دعوة الحق، ليكون فى هذا القصص عبرة للمعتبرين، وذكرى للمتذكرين.

ثم ضرب الله مثلا، لمن يتخذ آلهة من دونه، وتوعد من يفعل ذلك بأشد أنواع العذاب، فقال - تعالى - :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا
يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ
أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا
وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

والمثل والمثَـــلُ : النظير والشبيه ، ثم أطلق المثل على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - ، لمورده - وهو الذى ورد فيه أولك - ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة ، إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة . وعلى هذا المعنى يحمل المثل هنا .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الحاضر ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل ، أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والعنكبوت : دويبة معروفة ، تنسج لنفسها فى الهواء بيتا رقيقا ضعيفا ، لا يغنى عنها شيئا وتطلق هذه الكلمة على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، والغالب فى استعمالها التأنيث ، والواو والتاء زائدتان ، كما فى لفظ طاغوت .

والمعنى : حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله - تعالى - أصناما يعبدونها ، ويرجون نفعها وشفاعتها . . كحال العنكبوت فى اتخاذها بيتا ضعيفا مهلهلا ، لا ينفعها لا فى الحر ولا فى القر ، ولا يدفع عنها شيئا من الأذى .

فالمقصود من المثل تجهيل المشركين وتقريعهم ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - آلهة ، هى فى ضعفها ووهنها تشبه بيت العنكبوت ، وأنهم لو كانوا من ذوى العلم لما عبدوا تلك الآلهة .

قال صاحب الكشاف : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلا ومعتمدا فى دينهم وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند الناس فى الوهن وضعف القوة . وهو نسج العنكبوت ، ألا ترى إلى مقطع التشبيه ، وهو قوله : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لو كانوا يعلمون » وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟

قلت : معناه ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . . »(١) .

وقال الآلوسى : قوله : « لو كانوا يعلمون » أى : لو كانوا يعلمون شيئا من الأشياء ، لعلموا أن هذا مثلهم ، أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . و « لو » شرطية ، وجوابها محذوف ، وجوز بعضهم كونها للتمنى فلا جواب لها ، وهو غير ظاهر »(٢) .

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شىء ، وأنه سيجازى هؤلاء المشركين بما يستحقونه من عقاب فقال : « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء ، وهو العزيز الحكيم » .

و « ما » موصولة ، وهى مفعول يعلم ، والعائد محذوف ، و « من شىء » بيان لما .

أى . إن الله - تعالى - يعلم علما تاما الذى يعبده هؤلاء المشركون من دونه ، سواء أكان ما يعبدونه من الجن أم من الإنس أم من الجمادات ، أم من غير ذلك ، « هو » سبحانه « العزيز » أى : الغالب على كل شىء « الحكيم » فى أقواله وأفعاله .

« وتلك الأمثال » التى سقناها فى كتابنا العزيز ، والتى من بينها المثال السابق « نضربها للناس » على سبيل الارشاد والتنبيه والتوضيح .

« وما يعقلها إلا العالمون » أى : وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها وفائدتها ، إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى خلق الله - تعالى - ، الفاقهون لما يتلى عليهم .

. . . .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٥٤

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٦٢

ثم ذكر — سبحانه — ما يدل على عظيم قدرته ، وأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، ومن الصلاة ، فقال — تعالى — : « خلق الله السموات والأرض بالحق » .

أى : خلق الله — تعالى — السموات والأرض بالحق الذى لا باطل معه .

وبالحكمة التى لا يشوبها عبث أو لهو ، حتى يكون هذا الخلق متفقا مع مصالح عبادنا ومنافعهم .

ومن مظاهر ذلك ، أنك لا ترى — أيها العاقل — فى خلق الرحمن من تفاوت أو تصادم ، أو اضطراب .

واسم الإشارة فى قوله — تعالى — : « إن فى ذلك لآية للمؤمنين » يعود إلى خلق السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه من بدائع وعجائب .

أى : إن فى ذلك الذى خلقناه بقدرتنا ، من سماوات مرتفعة بغير عمد ، ومن أرض مفروشة بنظام بديع ، ومن عجائب لا يحصيها العد فى هذا الكون إن فى كل ذلك لآية بينة ، وعلامة واضحة ، على قدرة الله — عز وجل — .

وخص المؤمنين بالذكر ، لأنهم هم المتدبرون فى هذه الآيات والدلائل وهم المنتفعون بها فى التعرف على وحدانية الله وقدرته ، وعلى حسن عبادته وطاعته .

والمقصود بالتلاوة فى قوله — تعالى — : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب » : القراءة المصحوبة بضبط الألفاظ ، وبتفهم المعانى ، والخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ويشمل كل من آمن به .

أى : اقرأ — أيها الرسول الكريم — ما أوحينا إليك من آيات هذا

القرآن قراءة تدبر واعتبار واتعاظ ، ودوام على ذلك ، ومر أتباعك أن يقتدوا بك فى المواظبة على هذه القراءة الصحيحة النافعة .

« وأقم الصلاة » أى : وواظب على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص واطمئنان ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا بك فى ذلك .

وقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » تعليل للأمر بالمحافظة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص .

أى : داوم — أيها الرسول الكريم — على إقامة الصلاة بالطريقة التى يحبها الله — تعالى — ، فإن من شأن الصلاة التى يؤديها المسلم فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، أن تنهى مؤديها عن ارتكاب الفحشاء — وهى كل ماقبح قوله وفعله — ، وعن المنكر — وهو كل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة — .

قال الجمل : « ومعنى نهيها عنهما ، أنها سبب الانتهاء عنهما ، لأنها مناجاة لله — تعالى — ، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلى عن معاصيه .

قال ابن مسعود : فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزده من الله إلا بعدا .

وروى عن أنس — رضى الله عنه — أن فتى من الأنصار ، كان يصلى مع النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم يأتى الفواحش فذكر للنبى (صلى الله عليه وسلم) فقال : إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله » (١) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٧٧

والخلاصة ، أن من شأن الصلاة المصحوبة بالإخلاص والخشوع وبإتمام سننها وآدابها ، أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن وجدت إنسانا يؤدى الصلاة ، ولكنه مع ذلك يرتكب بعض المعاصى ، فأقول لك : إن الذنب ليس ذنب الصلاة ، وإنما الذنب ذنب هذا المرتكب للمعاصى ، لأنه لم يؤد الصلاة أداء مصحوبا بالخشوع والإخلاص .

وإنما أداها دون أن يتأثر بها قلبه .. ولعلها تنهاه فى يوم من الأيام ببركة مداومته عليها ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إن الصلاة ستنهاه » .

وقوله – سبحانه – : « ولذكر الله أكبر » أى : ولذكر الله – تعالى – بجميع أنواعه من تسبيح وتحميد وتكبير وغير ذلك من ألوان العبادة ، والذكر ، أفضل وأكبر من كل شىء آخر ؛ لأن هذا الذكر لله – تعالى – فى كل الأحوال ، دليل على صدق الإيمان ، وحسن الصلة بالله – تعالى – .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله – تعالى – : « ولذكر الله أكبر » ، قاله ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر . أى : ولذكر الله – تعالى – إياكم ، أكبر من ذكركم إياه – سبحانه – .

وروى عن جماعة من السلف أن المعنى : ولذكر العبد لله – تعالى – ، أكبر من سائر الأعمال .

أخرجه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملا أنجى له من عذاب الله يوم القيامة ، من ذكر الله – تعالى –

وقيل المراد بذكر الله الصلاة ، كما فى قوله – تعالى – : « فاسعوا إلى ذكر الله » ، أى : إلى الصلاة ، فيكون المعنى : والصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به ، للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله – تعالى –

هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات، ناهية عن السيئات» (١) .

ويبدو لنا أن المراد بذكر الله - تعالى - هنا ، مايشمل كل قول طيب وكل فعل صالح، يأتيه المسلم بإخلاص وخشوع ، وعلى رأس هذه الأقوال والأفعال : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، والصلاة وما اشتملت عليه من أقوال وأفعال . .

وأن المسلم متى أكثر من ذكر الله - تعالى - كان ثوابه - سبحانه - له ، وثناؤه عليه ، أكبر وأعظم من كل قول ومن كل فعل .

وقوله - سبحانه - : «والله يعلم ما تصنعون» تذييل قصد به الترغيب فى إخلاص العبادة لله ، والتحذير من الرياء فيها .

أى : داوموا - أيها المؤمنون - على تلاوة القرآن الكريم، بتدبر واعتبار، وأقيموا الصلاة فى أوقاتها بخشوع وخضوع ، وأكثروا من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإن الله - تعالى - يعلم ما تفعلونه وما تصنعونه من خير أو شر ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى . .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله والمؤمنين ، أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، مادام لم يرتكبوا ظلما ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٩٥

والمجادلة : المخاصمة . يقال جادل فلان فلانا إذا خاصمه ، وحرص كل واحد منهما على أن يغلب صاحبه بقوة حجته .

أى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، إلا بالطريقة التى هى أحسن ، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن . . . »(١) .

فقال تعالى : ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن . .)

ثم أقام - سبحانه - الأدلة على أن هذا القرآن من عنده وحده ، فقال :

(*) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

(*) أول الجزء الحادى والعشرين .

(١) سورة النحل الآية ١٢٥

وقوله : «إلا الذين ظلموا منهم» استثناء من الذين يجادلون بالتي هي أحسن.

أي : ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم بأن أساءوا إليكم ، ولم يستعملوا الأدب في جدالهم ، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب .

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة . دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى في مجادلتهم لأهل الكتاب عموما ، ماعدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم

وقيل : المراد بأهل الكتاب هنا : المؤمنون منهم ، والمراد بالذين ظلموا : من بقى على الكفر منهم .

فيكون المعنى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم .

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر ، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب ، ومادام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : «وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم . . .» يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم .

أى : جادلوهم بالطريقة الحسنى مادامو لم يظلموكم ، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد . آمنا بالذى أنزل إلينا ، وهو القرآن ، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل .

قال الشوكانى : أى آمنا بأنهما منزلان من عند الله ، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية ، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه(١) .

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٢٠٥ .

« وإلهنا وإلهكم واحد » لاشريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته «ونحن» جميعا معاشر المؤمنين « له مسلمون » أى : مطيعون وعابدون له وحده، ولا نتخذ أربابا من دونه — عز وجل — .

قال القرطبى ماملخصه : اختلف العلماء فى قوله - تعالى - : «ولا تجادلوا أهل الكتاب . . . » فقال مجاهد : هى محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل -، والتنبيه على حججه وآياته . . وقوله : « إلا الذين ظلموا منهم » أى ظلموكم . .

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله . . . » .

وقول مجاهد : حسن، لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول . . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به . . . » .

والكاف بمعنى مثل . واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا أى : ومثل ذلك الانزال المعجز البديع، أنزلنا إليك الكتاب - أيها الرسول الكريم - ليكون هداية للناس، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والانجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك، وهو القرآن

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب : المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله . والمراد بالكتاب جنسه . والضمير فى «به» يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم - وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب، على سبيل المدح لهم لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم عملوا بمقتضاه .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٥٠

أما غيرهم ممن بقى على كفره ، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات ، فكأنه لم يره أصلا .

وقوله : «ومن هؤلاء من يؤمن به» أى : ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم — أيها الرسول الكريم — من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك .

و «من» للتبعيض ؛ لأنهم لم يؤمنوا جميعاً ، وإنما آمن منهم من هداه الله — تعالى — إلى الصراط المستقيم .

«وما يجحد بآياتنا» الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا ، «إلا الكافرون» أى : إلا الموغلون فى الكفر ، المصرون عليه إصرارا تاما .

والجحود : إنكار الحق مع معرفة أنه حق .

وعبر عن الكتاب بالآيات . للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله — تعالى — ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالجحود والنكران .

ثم ساق — سبحانه — أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده — تعالى — ، فقال : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذا لا ارتاب المبطلون» .

أى : أنت — أيها الرسول الكريم — ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن — تاليا لكتاب من الكتب ، ولا عارفا الكتابة ، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون فى شأنك ، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين .

و «من» فى قوله «من كتاب» لتأكيد نفى كونه (ﷺ) قارئا لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه .

وقوله: «ولا تخطه بيمينك» لتأكيد نفي كونه (ﷺ) يعرف الكتابة أو الخط.

قال الإمام ابن كثير: وهكذا صفته (ﷺ) في الكتب المتقدمة، كما قال - تعالى -: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل..»، وهكذا كان - صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم...» (١).

والمراد بالمبطلين، كل من شك في كون هذا القرآن من عند الله - تعالى -، سواء أكان من مشركي مكة أم من غيرهم.

وسماهم - سبحانه - مبطلين، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق؛ لأن الرسول (ﷺ) قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة، يعرفون حسبه ونسبه، ويعلمون حق العلم أنه أمي لا يعرف الكتابة والقراءة.

ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال: «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم...».

أي: هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول (ﷺ) كما زعم المبطلون -، بل هو آيات بينات واضحات راسخات في صدور المؤمنين به، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب.

ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم، والإعلاء من شأنهم، حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه - من علم نافع، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله، ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

وقوله - سبحانه -: «وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزوا كل حق وصدق في أحكامهم وتصرفاتهم.

أي: وما يجحد بآياتنا مع وضوحها وسطوعها، وينكر كونها من عند الله

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٥

ـ تعالى ، إلا الظالمون المتجاوزون لكل ماهو حق ، ولكل ماهو صدق.
ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفا من أقوال المشركين الفاسدة

وأمرت الرسول (ﷺ) أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم. كما قصت علينا ألوانا من ألوان جهالاتهم، حيث استعجلوا العذاب الذى لا يستعجله عاقل، فقال ـ تعالى ـ:
وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه . .)

ومرادهم بالآيات فى قوله ـ تعالى ـ : «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه» الآيات الكونية ، كعصا موسى ، وناقة صالح ، ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : وقال المبطلون للنبى (ﷺ) على سبيل التعنت والعناد ، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك ، لكى نؤمن بك ونتبعك ؟

وقوله : « قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » إرشاد من الله ـ تعالى ـ لنبيه (ﷺ) إلى ما يرد به عليهم .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ فى ردك على هؤلاء الجاهلين ، إنما الآيات التى تريدونها عند الله ـ تعالى ـ وحده ، ينزلها حسب إرادته ، وحكمته ، أما أنا فإن وظيفتى الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتى ، وليس من وظيفتى أن أقترح على الله ـ تعالى ـ شيئا .

وقوله ـ سبحانه ـ : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . . » كلام مستأنف من جهته ـ تعالى ـ لتوبيخهم على جهالاتهم. والاستفهام للإنكار والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : أقالوا ما قالوا من باطل وجهل ، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا

الكتاب الناطق بالحق ، يتلى على مسامعهم صباح مساء ، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم ، لو تدبروه وآمنوا به ، واتبعوا أوامره ونواهيه ؟

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : « يتلى عليهم » ، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة عليهم ، وغير منقطعة عنهم ، وكان فى إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا يعقلون » .

ولذا ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

أى : إن فى ذلك الكتاب الذى أنزلناه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ، والذى تتلوه عليهم صباح مساء ، لرحمة عظيمة ، وذكرى نافعة ، لقوم يؤمنون بالحق ، ويفتحون عقولهم للرشد ، لا للتعنت والجحود والعناد .

ثم أرشده ـ سبحانه ـ إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال :

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ
إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم
مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ
ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن
دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

أى : قل — أيها الرسول الكريم — لهؤلاء الجاهلين : يكفينى كفاية تامة أن يكون الله — تعالى — وحده ، هو الشهيد بينى وبينكم على أنى صادق فيما أبلغه عنه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده

وهو - سبحانه - « يعلم ما فى السموات والأرض » علما لا يعزب عنه شىء ، وسيجازينى بما أستحقه من ثواب، وسيجازيكم بما تستحقونه من عقاب.

« والذين آمنوا بالباطل » وأعرضوا عن الحق « وكفروا بالله » - تعالى - مع وضوح الأدلة على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة والطاعة .

الذين فعلوا ذلك : « أولئك هم الخاسرون » خسارة ليس بعدها خسارة، حيث آثروا الغى على الرشد ، واستحبوا العمى على الهدى ، وسيكون أمرهم فرطا فى الدنيا والآخرة .

وقوله - عز وجل - : « ويستعجلونك بالعذاب . . » بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين ، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم .

أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك - أيها الرسول الكريم - بل أضافوا إلى ذلك ، التطاول عليك ، لسوء أدبهم ، وعدم فهمهم لوظيفتك . بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء ، على سبيل التحدى لك ، كما قالوا فى موطن آخر : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

ثم يبين الله - تعالى - حكمته فى تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول: « ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب . . »

أى : يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم ، والحق أنه لولا أجل مسمى ، ووقت معين ، حدده الله - تعالى - فى علمه لنزول العذاب بهم ، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه ، بدون إبطاء أو تأخير .

ومع ذلك فقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن هذا العذاب آت لا ريب فيه فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ، وإن هذا العذاب المدمر المهلك:

« ليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون » .

أى : ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات ، والحال أنهم لا يشعرون به، بل يأتيهم بغتة فيبهتهم ، ويستأصل شأفتهم .

ثم كرر — سبحانه — أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم ، والتسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عما لقيه منهم ، فقال : « يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » .

أي : يستعجلونك — أيها الرسول الكريم — بالعذاب ، الذي لا يطلبه أحد في ذهنه مثقال ذرة من عقل ، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة ، وستحيط بهم جهنم من كل جانب .

ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال: « يوم يغشاهم العذاب .. »

أي : ستحيط بهم جهنم من كل جانب ، يوم يحل بهم العذاب « من فوقهم ومن تحت أرجلهم » أي : من جميع جهاتهم .

« ويقول » — سبحانه — لهم ، على سبيل التقريع والتأنيب « ذوقوا ما كنتم تعملون » أي: تذوقوا العذاب المهين الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا والذي أحاط بكم من كل جانب بسبب أعمالكم القبيحة ، وأقوالكم الباطلة.

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين، الذين استعجلوا العذاب لجهلهم وعنادهم ، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على الحق ، فقال - تعالى - يا عبادي الذين آمنوا :إن أرضي واسعة . . »

قال الإمام ابن كثير : قوله -تعالى- :« ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة . . . » : هذا أمر من الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم . .

روى الإمام أحمد عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول الله - ﷺ -: [البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرا فأقم » .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك . . ثم بعد ذلك ، هاجر الرسول

-- صلى الله عليه وسلم -- وأصحابه إلى المدينة المنورة . . »(١) .

وفى ندائهم بقوله : « ياعبادى » وفى وصفهم بالإيمان ، تكريم وتشريف لهم ، حيث أضافهم -- سبحانه -- إلى ذاته ، ونعتهم بالنعت المحبب إلى قلوبهم .

وقوله : « إن أرضى واسعة » تحريض لهم على الهجرة من الأرض التى لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : ليس هناك ما يجبركم على الإقامة فى تلك الأرض التى لا قدرة لكم فيها على إظهار دينكم ، بل اخرجوا منها فإن أرضى واسعة ، ومن خرج من أجل كلمة الله ، رزقه الله -- تعالى -- من حيث لا يحتسب .

ومن المفسرين الذين أجادوا فى شرح هذا المعنى ، صاحب الكشاف - رحمه الله - فقد قال : ومعنى الآية : أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ، ولم يتمش له أمر دينه كما يجب ، فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وأكثر عبادة . .

ولعمرى إن البقاع تتفاوت فى ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جربنا وجرب أولونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس ، وعصيان الشهوة ، وأجمع للقلب المتلفت ، وأضم للهم المنتشر ، وأحث على القناعة ، وأطرد للشيطان ، وأبعد عن الفتن . . من سكنى حرم الله ، وجوار بيت الله ، فلله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب . . »(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٦١ .

والفاء في قوله — تعالى — « فإياي فاعبدون » بمعنى الشرط ، وإياي منصوب بفعل مضمر ، قد استغنى عنه بما بعده . أي : فاعبدوا إياي فاعبدون .

والمعنى : إن ضاق بكم مكان ، فإياي فاعبدوا ، لأن أرضي واسعة ، ولن تضيق بكم .

ثم رغبهم بأسلوب آخر في الهجرة من الأرض الظالم أهلها ، بأن بين لهم بأن الموت سيدركهم في كل مكان ، فقال - تعالى - : « كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون » .

أي : كل نفس سواء أكانت في وطنها الذي عاشت فيه أم في غيره ، ذائقة لمرارة الموت ، ومتجرعة لكأسه ، ثم إلينا بعد ذلك ترجعون جميعا لنحاسبكم على أعمالكم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من جزاء طيب فقال : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لنبوئنهم من الجنة غرفا . . . » .

أي : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، لننزلنهم من الجنة غرفا عالية فخمة ، هذه الغرف من صفاتها أنها « تجري من تحتها الأنهار » زيادة في إكرام أصحابها ، وفضلا عن ذلك فقد جعلناهم « خالدين فيها » خلودا أبديا .

والمخصوص بالمدح في قوله : « نعم أجر العاملين » محذوف . أي : نعم أجر العاملين ، أجر هؤلاء الذين آمنوا وعملو الصالحات .

وقوله : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » صفة لهؤلاء العاملين .

أي : من مناقبهم الجليلة أنهم يصبرون على طاعة الله ، وعلى كل مايحسن معه الصبر ، وأنهم يفوضون أمورهم إلى خالقهم لا إلى غيره .

ثم رغبهم - سبحانه - في الهجرة لإعلاء كلمة الله بأسلوب ثالث، حيث بين لهم أن هجرتهم لن تضيع شيئا من رزقهم الذي كتبه الله لهم، فقال - سبحانه -: « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » .

روى أن بعض الذين أسلموا بمكة عندما أمرهم النبي — صلى الله عليه وسلم — بالهجرة إلى المدينة قالوا : كيف نهاجر إلى بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت هذه الآية .

وكلمة « كأين » . مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير، ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها . وهى مبتدأ . و « من دابة » تمييز لها .

وجملة : « لا تحمل رزقها » صفة لها ، وجملة « الله يرزقها » هى الخبر .

والدابة : اسم لكل نفس تدب على وجه الأرض سواء أكانت من العقلاء أم من غير العقلاء .

أى : وكثير من الدواب التى خلقها الله — تعالى — بقدرته، لا تستطيع تحصيل رزقها ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، لضعفها أو عجزها . . ومع هذا فالله — تعالى — برحمته وفضله يرزقها ولا يتركها تموت جوعا ، ويرزقكم أنتم — أيضاً — ، لأنه لا يوجد مخلوق — مهما اجتهد ودأب — يستطيع أن يخلق رزقه .

« وهو » - سبحانه - « السميع » لكل شيء « العليم » بما تسرون وما تعلنون .

وقدم - سبحانه - رزق الدابة التي لا تستطيع تحصيله ، على رزقهم فقال : « الله يرزقها وإياكم » لينفي من قلوب الناس القلق على الرزق ، وليشعرهم بأن الأسباب ليست هي كل شيء ، فإن واهب الأسباب، لا يترك أحدا بدون رزق ، ولإزالة ما قد يخطر في النفوس من أن الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله قد تنقص الرزق . .

وهكذا يسوق - سبحانه - من المرغبات في الهجرة في سبيله ، ما يقنع النفوس، ويهدئ القلوب ، ويجعل المؤمنين يقبلون على تلبية ندائه ، وهم آمنون مطمئنون على أرواحهم ، وعلى أرزاقهم ، وعلى حاضرهم ومستقبلهم فسبحان من هذا كلامه .

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما عليه المشركون من تناقض في أفكارهم وفي تصوراتهم ، وببيان حال هذه الحياة الدنيا وببيان جانب من النعم التي أنعم بها على أهل مكة ، وببيان ما أعده للمجاهدين في سبيله من ثواب ، فقال - تعالى - :

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى
ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ
أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله . » بيان لما كان عليه مشركو العرب من اعتراف بأن المستقل بخلق هذا الكون هو الله ـ تعالى ـ .

أى : ولئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين ، من الذى أوجد هذه السموات وهذه الأرض ، ومن الذى ذلل وسخر لمنفعتكم الشمس والقمر ، ليقولن بدون تردد : الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك بقدرته .

وقوله - سبحانه - : « فأنى يؤفكون » تعجب من تناقضهم فى أفعالهم ، ومن انحراف فى تفكيرهم ، ومن تركهم العمل بموجب ماتقتضيه أقوالهم .

أى : إذا كنتم معترفين بأن الله وحده هو الخالق للسموات والأرض والمسخر للشمس والقمر ، فلماذا أشركتم معه فى العبادة آلهة أخرى ؟ ولماذا تنصرفون عن الأقرار بوحدانيته — عز وجل — ؟

ثم بين - سبحانه - أن الأرزاق جميعها بيده ، يوسعها لمن يشاء ويضيقها على من يشاء فقال : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له . . . »

والضمير فى قوله : « له » يعود على « من » على حد قولك : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر .

أى : الله — تعالى — وحده هو الذى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه عليه من عباده ، وهو وحده الذى يضيق الرزق على من يشاء أن يضيقه عليه من عباده . — سبحانه — لا يسأل عما يفعل ، وأفعاله كلها خاضعة لمشيئته وحكمته ، وكل شىء عنده بمقدار .

ويجوز أن يكون المعنى : الله — تعالى — وحده هو الذى بقدرته أن يوسع الرزق لمن يشاء من عباده تارة ، وأن يضيقه عليهم تارة أخرى .

فعلى المعنى الأول : يكون البسط فى الرزق لأشخاص ، والتضييق على آخرين ، وعلى المعنى الثانى يكون البسط والتضييق للأشخاص أنفسهم ولكن فى أوقات مختلفة .

والله - تعالى - قادر على كل هذه الأحوال ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء.

« إن الله بكل شيء عليم » فيعلم ما فيه صلاح عباده وما فيه فسادهم ، ويعلم من يستحق أن يبسط له فى رزقه ، ومن يستحق التضييق عليه فى رزقه .

ثم أكد - سبحانه - للمرة الثانية اعتراف هؤلاء المشركين بقدرة الله - تعالى - فقال : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء » أى : ماء كثيرا « فأحيا به الأرض من بعد موتها » أى : فجعل الأرض بسبب نزول الماء عليها تصبح خضراء بالنبات بعد أن كانت جدباء قاحلة .

لئن سألتهم من فعل ذلك « ليقولن الله » هو الذى فعل ذلك .

« قل الحمد لله » أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الثناء على الله - تعالى - : الحمد لله الذى أظهر حجته ، وجعلهم ينطقون بأنك على الحق المبين ، ويعترفون بأن إشراكهم إنما هو من باب العناد والجحود .

وقوله - سبحانه - : « بل أكثرهم لا يعقلون » إضراب عما هم عليه من إنحراف وتناقض ، إلى بيان حقيقة حالهم ، وتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يعتريه بسببهم من حزن .

أى : بل أكثرهم لا يعقلون شيئا مما يجب أن يكون عليه العقلاء من فهم سليم للأمور ، ومن العمل بمقتضى ما تنطق به الألسنة .

وفى التعبير بأكثرهم ، إنصاف لقلة منهم عقلت الحق فاتبعته ، وآمنت به وصدقته ، ثم بين - سبحانه - هوان هذه الحياة الدنيا ، بالنسبة للدار الآخرة فقال : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

واللهو : إشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه . أو هو الاستمتاع بملذات الدنيا .

واللعب : العبث . وهو فعل لا يقصد به مقصد صحيح .

أى : أن هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من حطام ، تشبه فى سرعة إنقضائها وزوال متعها ، الأشياء التى يلهو بها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتا ، ثم ينفضون عنها .

أما الدار الآخرة ، فهى دار الحياة الدائمة الباقية ، التى لا يعقبها موت ، ولا يعتريها فناء ولا انقضاء .

واللفظ « الحيوان » مصدر حى . سمى به ذو الحياة ، والمراد به هنا : نفس الحياة الحقة .

وقوله : « لو كانوا يعلمون » أى : لو كانوا يعلمون حق العلم ، لما آثروا متع الدنيا الفانية على خيرات الآخرة الباقية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما يحيط بهم البلاء فقال - تعالى - : « فإذا ركبوا الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . . . » .

أى : أن من صفات هؤلاء الجاحدين ، أنهم إذا ركبوا السفن ، وجرت بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، ثم جاءتهم بعد ذلك ريح عاصف ، وظنوا أن الغرق قد اقترب منهم ، تضرعوا إلى الله — تعالى — مخلصين له العبادة والدعاء .

« فلما نجاهم إلى البر » بفضله وكرمه ، وأنقذهم من الغرق المحقق « إذا هم يشركون » مع الله — تعالى — غيره فى العبادة والطاعة .

وقد فعلوا ذلك : « ليكفروا بما آتيناهم » من نعم ، وبما منحناهم من فضل ورحمة .

« وليتمتعوا » بمتع هذه الحياة وزينتها إلى حين « فسوف يعلمون » عما قريب عاقبة هذا الكفران لنعم الله ، وهذا التمتع بزينة الحياة الدنيا دون أن يعملوا شيئا ينفعهم فى أخراهم .

قال الآلوسى: قوله : « ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا » : الظاهر أن اللام فى الموضعين لام كى ، أى : يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام ، فالشرك سبب لهذا الكفران . وأدخلت لام كى على مسببه ؛ لجعله كالغرض لهم منه ، فهى لام العاقبة فى الحقيقة .

وقيل : اللام فيهما لام الأمر ، والأمر بالكفران والتمتع ، مجاز فى التخلية والخذلان والتهديد ، كما تقول عند الغضب على من يخالفك : « اعمل ما شئت »(١) .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة الحرم الآمن ، الذى يعيشون فى جواره مطمئنين ، فقال : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » .

أى : أجهل هؤلاء قيمة النعمة التى هم فيها ، ولم يدركوا ويشاهدوا أنا جعلنا بلدهم مكة حرما آمنا ، يأمنون فيه على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم والحال أن الناس من حولهم يقتل بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض بسرعة وشدة . والتخطف : الأخذ بسرعة .

قال صاحب الكشاف : كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٣ .

ويتغاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون فيها آمنون لا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله بهذه النعمة الخاصة عليهم »(١) .

والاستفهام فى قوله — تعالى — : « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » للتعجب من حالهم ، وللتوبيخ لهم على هذا الجحود والكفر لنعم الله — تعالى — .

أى : أفبعد هذه النعمة الجليلة يؤمنون بالأصنام وبنعمة الله التى تستدعى استجابتهم للحق يكفرون .

فالآية الكريمة قد اشتملت على ما لا يقادر قدره ، من تعجب وتوبيخ وتقريع

وقوله - تعالى - : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه » . أى : لا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا ، بأن زعم بأن لله — تعالى — شريكا ، أو كذب بالحق الذى جاءه به الرسول —صلى الله عليه وسلم- بأن أعرض عنه ، وأبى أن يستمع إليه .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » للتقرير والمثوى المكان الذى يثوى فيه الشخص ، ويقيم به ، ويستقر فيه .

أى : أليس فى جهنم مأوى ومكانا يستقر فيه هؤلاء الكافرون لنعم الله - تعالى - ؟ بلى إن فيها مكانا لاستقرارهم ، وبئس المكان ، فإنها ساءت مستقرا ومقاما .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

أى : هذا الذى ذكرناه سابقا من سوء مصير ، هو للمشركين الذين يؤمنون بالباطل ويتركون الحق ، أما الذين بذلوا جهدهم فى سبيل إعلاء ديننا ، وقدموا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٦٤ .

أنفسهم وأموالهم في سبيل رضائنا وطاعتنا ، وأخلصوا لنا العبادة والطاعة ، فإننا لن نتخلى عنهم ؛ بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ؛ ونجعل العاقبة الطيبة لهم ؛ فقد إقتضت رحمتنا وحكمتنا أن نكون مع المحسنين في أقوالهم وفي أفعالهم ، وتلك سنتنا التي لا تتخلف ولا تتبدل .

وبعد فهذا تفسير لسورة « العنكبوت » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوي

الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة : مدينة نصر . ظهر الأحد ١٩/٥/١٤٠٥ هـ

٦/ ٢/ ١٩٨٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمه والتمهيد	٥
١	آلم. أحسب الناس أن يتركوا . .	٩
٨	ووصينا الإنسان بوالديه . .	١٦
١٠	ومن الناس من يقول آمنا بالله . .	١٦
١٤	ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . .	٢٢
١٨	وإن تكذبوا فقد كذب أمم . .	٢٦
٢٤	فما كان جواب قومه . .	٣١
٢٨	ولوطا إذ قال لقومه . .	٣٧
٣٦	وإلى مدين أخاهم شعيبا . .	٤٣
٤١	مثل الذين اتخذوا من دون الله . .	٤٨
٤٤	خلق الله السموات والأرض . .	٤٨
٤٦	ولاتجادلوا أهل الكتاب . .	٤٨
٥٠	وقالوا لولا أنزل عليه آيات . .	٥٥
٥٦	ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى . .	٥٩
٦١	ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض . .	٦٢

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الروم

الدكتور
محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة وتمهيد

١ — سورة الروم هى السورة الثلاثون فى ترتيب المصحف أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الثانية والثمانون ، وقد كان نزولها بعد سورة الإنشقاق .

٢ — وقد افتتحت بالحديث عن قصة معينة ، وهى قصة الحروب التى داوت بين الفرس والروم ، والتى انتهت فى أول الأمر بانتصار الفرس ، ثم كان النصر بعد ذلك للروم .

قال ـ تعالى ـ : « ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

٣ — ثم وبخت السورة الكريمة الكافرين ، لعدم تفكرهم فى أحوال أنفسهم ، وفى أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، وتوعدتهم بسوء المصير بسبب انطماس بصائرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق ، ووعدت المؤمنين بحسن الجزاء .

قال ـ تعالى ـ : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، فأولئك فى العذاب محضرون » .

٤ — ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك اثنى عشر دليلا على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وقد بدئت هذه الأدلة بقوله ـ تعالى ـ : « ومن آياته أن

خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . . . »

٥ — وبعد أن أقام - سبحانه - هذه الأدلة المتعددة على وحدانيته وقدرته أتبع ذلك بأن أمر الناس باتباع الدين الحق ، وبالإنابة إليه - تعالى - فقال: « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » .

٦ — ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى السراء والضراء ، ودعاهم إلى التعاطف والتراحم ، ونفرهم من تعاطى الربا ، فقال - تعالى - : فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون . . . »

٧ — ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وبين الآثار السيئة التى تترتب على جحود هذه النعم ، ودعا الناس للمرة الثانية إلى اتباع الدين القيم، الذى لا يقبل الله - تعالى - دينا سواه، فقال - تعالى - : فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون » .

٨ — ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة الله فى الرياح وفى إرسال الرسل ، وأمر كل عاقل أن يتأمل فى آثار هذه النعم، ليزداد إيمانا على إيمانه ، فقال - تعالى - « فانظر إلى آثار رحمه الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير . . . »

٩ — ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة ببيان أهوال الساعة ، وحكى أقوال أهل العلم والإيمان ، في ردهم على المجرمين عندما يقسمون أنهم مالبثوا في هذه الدنيا سوى ساعة واحدة ، وأمر — سبحانه — نبيه — ﷺ — أن يصبر على أذى أعدائه ، فقال — تعالى — : « فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

١٠ — وهكذا نجد أن سورة « الروم » ، قد أفاضت في الحديث عن الأدلة المتعددة ، التي تشهد بوحدانية الله — تعالى — وقدرته ، كما تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، وبأن يوم القيامة حق وصدق ، كما ساقت آيات متعددة في المقارنة بين مصير الأخيار ، ومصير الأشرار ، ودعت الناس إلى الثبات على الدين الحق ، وهو دين الإسلام ، كما حضت على التعاطف والتراحم بين المسلمين ، ونهت عن تعاطي الربا ، لأنه لا يربو عند الله — تعالى — ، وإنما الذي يعطى من صدقات هو الذي يربو عند الله — عز وجل — ، كما ذكرت أنواعا من النعم التي أنعم الله — تعالى — بها على عباده ، وأمرتهم بشكره — سبحانه — عليها ، لكي يزيدهم من فضله . . .

هذه أهم المقاصد التي اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يراها من يتدبر هذه السورة الكريمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد سيد طنطاوي

القاهرة — مدينة نصر — ١٧ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ
٧ / ٣ / ١٩٨٥ م

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

سورة الروم من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى، وقد ذكرنا فى أكثر من سورة آراء العلماء فى هذه الحروف، ورجحنا أن هذه الحروف قد ذكرها - سبحانه - فى افتتاح بعض السور القرآنية، للتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند الله، لأن الله - تعالى - قد أنزله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - بمثل الحروف التى ينطق بها المشركون، ومع ذلك فهم أعجز من أن يأتوا بسورة من مثله . .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : « غلبت الروم . فى أدنى الأرض . . . » روايات منها، مارواه ابن جرير - بإسناده - عن عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر

الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : « الم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض . . » قالوا : يا أبا بكر . إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين . قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك — أى : نراهنك وكان ذلك قبل تحريم الرهان — فبايعوه على أربع قلائص — جمع قلوص ، وهى من الإبل : الشابة — إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شىء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر للنبى (ﷺ) فقال : ما بضع سنين عندكم ؟ قالوا : دون العشر . قال : اذهب فزايدهم ، وازدد سنتين فى الأجل . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك . . . » (١) .

وقال بعض العلماء : اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان قد غزا بلاد الشام مرتين : فى سنة ٦١٣ ، وفى سنة ٦١٤ أى : قبل الهجرة بسبع سنين ، فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون ، وشمتوا فى المسلمين . . . فنزلت هذه الآيات .

فلم يمض من البضع — وهو ما بين الثلاث إلى التسع — سبع سنين ، إلا وقد انتصر الروم على الفرس ، وكان ذلك سنة ٦٢١ م . أى : قبل الهجرة بسنة . . . » (٢) .

وأدنى بمعنى أقرب ، والمراد بالأرض : أرض الروم .

أى : غلبت الروم فى أقرب أرضها من بلاد الفرس .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٠٦ ، وتفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ١٣ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ١٢ ص ٤٧٦٥

قال ابن كثير : وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم ، حين غلبت الروم ، بين أذرعات وبصرى ، — على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما — ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة . وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، (١) .

وقال الآلوسى : « والمراد بالأرض أرض الروم ، على أن « أل » نائبة مناب الضمير المضاف إليه ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة ، لأن الكلام معهم ، أو المراد بها أرض مكة ونواحيها ، لأنها الأرض المعهودة عندهم ، والأقربية بالنظر إلى الروم . . . » (٢) .

وقوله — تعالى — : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين » بشارة من الله — تعالى — للمؤمنين ، بأن الله — تعالى — سيحقق لهم ما يرجونه من انتصار الروم على الفرس .

أى وهم — أى الروم — من بعد هزيمتهم من الفرس ، سينتصرون عليهم ، خلال بضع سنين .

والتعبير بقوله — تعالى — : « سيغلبون فى بضع سنين » لتأكيد هذا الوعد ، وبيان أن نصر الروم على فارس سيتم خلال سنوات قليلة من عمر الأمم ، وقد تحقق هذا الوعد على أكمل صورة وأتمها ، فقد انتصر الروم على الفرس نصرا عظيما ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله — تعالى — ، حيث أخبر عن أمور ستقع فى المستقبل ، وقد وقعت كما أخبر .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣١٠

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٧

وقوله — سبحانه — : « لله الأمر من قبل ومن بعد » جملة معترضة لبيان قدرة الله — تعالى — التامة النافذة ، فى كل وقت وآن .

أى : لله — تعالى — وحده الأمر النافذ من قبل انتصار الفرس على الروم ، ومن بعد انتصار الروم على الفرس ، وكلا الفريقين كان نصره أو هزيمته بإرادة الله ومشيئته ، وليس لأحد من الخلق أن يخرج عما قدره — سبحانه — وأراده .

«ويومئذ» أى : ويوم أن يتغلب الروم على الفرس « يفرح المؤمنون بنصر الله » حيث نصر أهل الكتاب وهم الروم ، على من لا كتاب لهم وهم الفرس ، الذين كانوا يعبدون النار فأبطل — سبحانه — بهذا النصر شماتة المشركين فى المسلمين ، وازداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم .

قال ابن كثير : وقد كانت نصرة الروم على فارس ، يوم وقعة بدر ، فى قول طائفة كبيرة من العلماء ... وقال آخرون : بل كان النصر للروم على فارس عام الحديبية . . فلما انتصرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس : . »(١) .

وقوله — سبحانه — : « ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » مؤكدا لما قبله . أى : ينصر — سبحانه — من يريد نصره ، ويهزم من يريد هزيمته ، وهو العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء

ثم زاد — سبحانه — هذا الأمر تأكيداً وتقوية فقال : « وعد الله لا يخلف الله وعده . . . » .

ولفظ « وعد » منصوب بفعل محذوف .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣١٠

أى : وعد الله المؤمنين بالنصر وبالفرح وعداً مؤكداً ، وقد اقتضت سنته — سبحانه — أنه لا يخلف وعده .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ذلك ، لانطماس بصائرهم ، ولاستيلاء الجهل على عقولهم ، ولاستحواذ الشيطان عليهم .

والضمير فى قوله — تعالى — : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . . » يعود للأكثر من الناس .

أى : هؤلاء الأكثرون من الناس ، من أسباب جهلهم بسنن الله — تعالى — فى خلقه ، أنهم لا يهتمون إلا بملاذ الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها ، ووسائل المعيشة فيها .

« وهم عن الآخرة » وما فيها من حساب وثواب وعقاب « هم غافلون » لأنهم آثروا الدار العاجلة ، على الدار الباقية ، فهم — كما قال — تعالى — : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : « يعلمون ظاهراً . . » بدل من قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويسد مسده ، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . . وفى تنكير قوله : «ظاهراً» إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهر الحياة الدنيا . . » (١) .

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الكافرين وأشباههم ، أنهما كهم فى شئون

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٨٦

الدنيا انهما كاناما جعلهم غافلين عما ينتظرهم فى أخراهم من حساب وعقاب ورحم الله القائل:

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

* * *

ثم حضهم — سبحانه — على التفكر فى خلق أنفسهم ، وعلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر والتدبر يهديهم إلى الصراط المستقيم . فقال — تعالى — :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ
ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ
فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ
ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟
بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ
مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أولم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » ، لتوبيخ أولئك

الكافرين الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم من الآخرة هم غافلون والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . و « ما » فى قوله « ماخلق » للنفى ، والباء فى قوله « إلا بالحق » للملابسة . وقوله : « وأجل مسمى » معطوف على الحق .

والمعنى : أبلغ الجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم اكتفوا بالانهماك فى متع الحياة الدنيا، ولم يتفكروا فى أحوال أنفسهم وفى أطوار خلقها، لأنهم لو تفكروا لعلموا وأيقنوا ، أن الله - تعالى - ما خلق السموات والأرض وما بينهما ، إلا ملتبسة بالحق الذى لا يشوبه باطل، وبالحكمة التى لا يحوم حولها عبث، وقد قدر - سبحانه - لهذه المخلوقات جميعها أجلا معينا تنتهى عنده ، وهو وقت قيام الساعة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الأشقياء ، غفلتهم عن الدار الآخرة وما فيها من حساب ، وتحضهم على التفكر فى تكوين أنفسهم ، وفى ملكوت السموات والأرض ، لأن هذا التفكر من شأنه أن يهدى إلى الحق، كما لفت أنظارهم إلى أن لهذا الكون كله نهاية ينتهى عندها ، وقت أن يأذن الله - تعالى - بذلك ، وبقيام الساعة .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف الأكثرية من الناس من قضية البعث والجزاء فقال : « وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » .

أى : وإن كثيرا من الناس لفى انشغال تام بدنياهم عن آخرتهم، ولا يؤمنون بما فى الآخرة من حساب وثواب وعقاب ، بل يقولون: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، وعلى رأس هذا الصنف من الناس مشركو مكة الذين أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقال - سبحانه - : «وإن كثيرا من الناس . . . » للإشعار بأن هناك عددا قليلا من الناس - بالنسبة لهؤلاء الكثيرين - قد آمنوا بلقاء ربهم ، واستعدوا لهذا اللقاء عن طريق العمل الصالح الذي يرضى خالقهم - عز وجل - .

ثم قرعهم - سبحانه - للمرة الثانية على عدم اتعاظهم بأحوال السابقين من الأمم قبلهم ، فقال - تعالى - : «أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . . » .

أي : أقعد مشركو مكة في ديارهم ، ولم يسيروا في الأرض سير المتأملين المتفكرين المعتبرين ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، من الأمم الماضية ، كقوم عاد وثمود ، وقوم لوط .

وقوله - سبحانه - : «كانوا أشد منهم قوة» بيان لحال هؤلاء الأقوام السابقين «وأثاروا الأرض» أي : كان أولئك السابقون أقوى من أهل مكة في كل مجال من مجالات القوة ، وكانوا أقدر منهم على حراثة الأرض ، وتهيئتها للزراعة ، واستخراج خيراتها من باطنها . .

«وعمروها أكثر مما عمروها» أي : حرثوا الأرض وشقوا عن باطنها ، وعمروها عمارة أكثر من عمارة أهل مكة لها ، لأن أولئك الأقوام السابقين كانوا أقوى من كفار مكة ، وكانوا أكثر دراية بعمارة الأرض .

وهؤلاء الأقوام السابقون : «جاءتهم رسلهم بالبينات» أي : بالمعجزات الواضحات ، وبالحجج الساطعات ، ولكن هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله - تعالى - «فما كان الله ليظلمهم» أي : فما كان الله - تعالى - من شأنه أن يعذبهم بدون ذنب .

«ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث ارتكبوا من الكفر والمعاصي ما كان سببا في هلاكهم .

ثم بين — سبحانه — المصير السيء، الذي حل بهؤلاء الكافرين فقال: «ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى . . . .».

ولفظ «عاقبة» قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي - بفتح التاء - على أنه خبر كان قدم على اسمها، وهو لفظ «السوءى» الذي هو تأنيث الأسوأ، كالحسنى تأنيث الأحسن، وجرد الفعل «كان» من التاء مع أن السوءى مؤنث، لأن التأنيث غير حقيقي.

فيكون المعنى: ثم كانت العقوبة السيئة وهى العذاب فى جهنم، عاقبة الذين عملوا فى دنياهم الأعمال السيئات.

وقرأ الباقون برفع لفظ «عاقبة» على أنه خبر كان، وخبرها لفظ «السوءى» أى: ثم كانت عاقبة هؤلاء الكافرين الذين أساؤا فى دنياهم، أسوأ العقوبات وأقبحها. أو كانت عاقبتهم السوءى وهى الإلقاء بهم فى النار وبئس القرار.

وقوله — سبحانه —: «أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون» تعليل لما آل إليه أمرهم من عاقبة سيئة، أى: لأن كذبوا، أو بأن كذبوا بحذف حرف الجر.

أى: كانت عاقبتهم فى الآخرة أسوأ العقوبات وأقبحها وهى العذاب فى جهنم، لأنهم فى الدنيا كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا (ﷺ) وكانوا بها يستهزئون.

• • •

ثم ساق — سبحانه — ما يدل على قدرته، وبين أحـــوال الناس وأقسامهم يوم القيامة، فقال — تعالى —: «الله يبدأ الخلق ثم يعيده ..».

أى : « الله » — تعالى — وحده هو « الذى يبدأ الخلق » أى : ينشئه ويوجده على غير مثال سابق ، «ثم يعيده» أى : إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة «ثم إليه ترجعون» للحساب والجزاء ، فيجازى — سبحانه — كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وأفرد — سبحانه — : الضمير فى « يعيده » باعتبار لفظ الخلق ، وجمعه فى قوله : « ترجعون » باعتبار معناه .

ثم ذكر - سبحانه - حال المجرمين يوم القيامة فقال : « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » و « يبلس » من الإبلاس بمعنى السكوت والذهول وانقطاع الحجة . يقال : أبلس الرجل ، إذا وقف ساكتاً حائراً مبهوتاً لا يجد كلاماً ينقذه مما هو فيه من بلاء .

أى : ويوم تقوم الساعة ، ويشاهد المجرمون أهوالها ، يصابون بالذهول والحيرة والسكوت المطبق ، لانقطاع حجتهم ، وشدة حزنهم وهمهم ويأسهم من النجاة يأساً تاماً .

« ولم يكن لهم » فى هذا اليوم «من شركائهم» الذين عبدوهم فى الدنيا « شفعاء » يشفعون لهم ، ويجيرونهم من عذاب الله .

« وكانوا بشركائهم كافرين » أى : أنهم فى هذا اليوم العسير لم يكن لهم من شفعاء يشفعون لهم . بل إنهم صاروا فى هذا اليوم الشديد ، كافرين بشركائهم الذين توهموا منهم الشفاعة . لأنهم يوم القيامة تتجلى لهم الحقائق ويعرفون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع ، ولا يخشى منهم ضر .

ثم كرر — سبحانه — هذا المعنى على سبيل التأكيد والتهويل من شأنه فقال : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » .

والضمير فى قوله : « يتفرقون » للناس جميعاً ، والمراد بتفرقهم أن كل طائفة منهم تتجه إلى الجهة التى أمرهم - سبحانه - بالتوجه إليها ، لينال جزاءه

ثم بين — سبحانه — كيفية هذا التفرق فقال : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون » .

والروضة : تطلق على كل مكان مرتفع زاخر بالنبات الحسن والمراد بها هنا : الجنة .

ويحبرون : من الحبور بمعنى الفرح والسرور والابتهاج .

أى : « ويوم تقوم الساعة » فى هذا اليوم يتفرق الناس إلى فريقين : أما فريق الذين آمنوا وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، فسيكونون فى الآخرة فى جنة عظيمة ، يسرون بدخولها سروراً عظيماً ، وينعمون فيها نعيماً لا يحيط به الوصف .

« وأما الذين كفروا » بالله وبرسله وباليوم الآخر « وكذبوا بآياتنا » الدالة على وحدانيتنا وصدق أنبيائنا « فأولئك » الكافرون « فى العذاب محضرون » أى : مقيمون فيه ، ومجموعون إليه ، بحيث لا يستطيعون الهروب منه - والعياذ بالله - .

• • •

وبعد هذا البيان المؤثر لأهوال يوم القيامة ، ولأحوال الناس فيه ... ساق - سبحانه - أنواعا متعددة من الأدلة والبراهين على وحدانيته - عز وجل - وقدرته ، ورحمته بخلقه ، فقال - تعالى - :

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾
وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾
يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن
تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن
فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ
وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قال الإمام الرازى : لما بين - سبحانه - عظمته فى الابتداء بقوله : « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » ، وعظمته فى الانتهاء ، بقوله : « ويوم تقوم الساعة » وأن الناس يتفرقون فريقين ، ويحكم - عز وجل - على البعض بأن هؤلاء الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء النار ولا أبالى ، بعد كل ذلك أمر بتنزيهه عن كل سوء ، وبحمده على كل حال ، فقال : « فسبحان الله حين تمسون . . . » (١) .

والفاء فى قوله : « فسبحان . . . لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولفظ « سبحان » اسم مصدر ، منصوب بفعل محذوف ، والتسبيح : تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ، والمعنى : إذا علمتم ما أخبرتكم به قبل ذلك ، فسبحوا الله - تعالى - ونزهوه عن كل نقص « حين تمسون » أى : حين تدخلون فى وقت المساء « وحين تصبحون » أى : تدخلون فى وقت الصباح.

وقوله - تعالى - : « وله الحمد فى السموات والأرض » جملة معترضة لبيان أن جميع الكائنات تحمده على نعمه ، وأن فوائد هذا الثناء تعود عليهم لا عليه - سبحانه - .

وقوله « وعشيا » معطوف على « حين تمسون » أى : سبحوا الله - تعالى - حين تمسون ، وحين تصبحون ، وحين يستركم الليل بظلامه ، وحين تكونون فى وقت الظهيرة ، فإنه - سبحانه - هو المستحق للحمد والثناء من أهل السموات ومن أهل الأرض ، ومن جميع المخلوقات .

قال ابن كثير ، وعن رسول الله (ﷺ) أنه قال : ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٥١٤

« سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ..... » .

وفى حديث آخر : من قال حين يصبح : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .. أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قالها حين يمسى ، أدرك ما فاته فى ليلته » (١) .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر قدرته فقال : « يخرج الحى من الميت » كإخراجه الإنسان من النطفة ، والنبات من الحب ، والمؤمن من الكافر « ويخرج الميت من الحى » كما فى عكس هذه الأمور ، كإخراجه النطفة من الإنسان ، والحب من النبات ، والكافر من المؤمن .

« ويحيى الأرض » بالنبات « بعد موتها » أى : بعد قحطها وجدبها ، كما قال - سبحانه - : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » ، وقوله - تعالى - : « وكذلك تخرجون » تذييل قصد به تقريب إمكانية البعث من العقول والأفهام .

أى : ومثل هذا الإخراج البديع للنبات من الأرض ، وللحى من الميت ، نخرجكم - أيها الناس - من قبوركم يوم القيامة ، للحساب والجزاء .

ثم أورد - سبحانه - بعد ذلك أنواعا من الأدلة على قدرته التى لا يعجزها شىء ، فقال - تعالى - : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .

والآيات : جمع آية ، وتطلق على الآية القرآنية ، وعلى الشىء العجيب كما فى قوله - تعالى - : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » . والمراد بها هنا : الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣١٤

والمعنى : «ومن آياته» سبحانه ـ الدالة على عظمته ، وعلى كمال قدرته ، أنه خلقكم من تراب ، أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فروع عنه .

و «إذا» فى قوله : «ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» هى الفجائية .

أى : خلقكم بتلك الصورة البديعة من مادة التراب التى لا يرى فيها رائحة الحياة ، ثم صرتم بعد خلقنا إياكم فى أطوار متعددة ، بشرا تنتشرون فى الأرض ، وتمشون فى مناكبها وتتقلبون فيها تارة عن طريق الزراعة ، وتارة عن طريق التجارة ، وتارة عن طريق الأسفار . . . كل ذلك طلباً الرزق ، ولجمع الأموال .

وعبر ـ سبحانه ـ بثم المفيدة للتراخى ، لأن انتشارهم فى الأرض لا يتأتى إلا بعد مرورهم بأطوار متعددة ، منها أطوار خلقهم فى بطون أمهاتهم ، وأطوار طفولتهم وصباهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد .

قال الشوكانى : وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم ، بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهى أطوار الإنسان ، كما حكاها الله ـ تعالى ـ فى مواضع ، من كونه نطفة ، ثم علقة ثم مضغة ، ثم عظماً مكسواً لحماً . . »(١) .

ـ ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان آية ثانية ، دالة على كمال قدرته ورأفته بعباده ، فقال : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا» أى : ومن آياته الدالة على رحمته بكم ، أنه ـ سبحانه ـ خلق لكم «من أنفسكم» ، أى : من جنسكم فى البشرية والإنسانية أزواجا .

قال الآلوسى : قوله «من أنفسكم أزواجا» فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم ـ عليه السلام ـ متضمن لخلقهن من أنفسكم ، فمن للتبعيض

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢١٩

والأنفس بمعناها الحقيقى ، ويجوز أن تكون « من » ابتدائية ، والأرض مجاز عن الجنس ، أى : خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر . قيل : وهو الأوفق لما بعد ، (١) .

وقوله - سبحانه - : «لتسكنوا إليها..» بيان لعلة خلقهم على هذه الطريقة أى : خلق لكم من جنسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، ويميل بعضكم إلى بعض فإن الجنس إلى الجنس أميل ، والنوع إلى النوع أكثر ائتلافا وانسجاما .

« وجعل » — سبحانه — « بينكم » يا معشر الأزواج والزوجات « مودة ورحمة » ، أى : محبة ورأفة ، لم تكن بينكم قبل ذلك ، وإنما حدثت عن طريق الزواج الذى شرعه — سبحانه — بين الرجال والنساء ، والذى وصفه — تعالى — بهذا الوصف الدقيق ، فى قوله — عز وجل — : «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» .

«إن فى ذلك» الذى ذكرناه لكم قبل ذلك «لآيات» عظيمة تهدى إلى الرشد وإلى الاعتبار «لقوم يتفكرون» فى مظاهر قدرة الله — تعالى — ورحمته بخلقه .

ثم ذكر — سبحانه — آية ثالثة فقال : «ومن آياته خلق السموات والأرض» ، أى : ومن آياته الدالة على قدرته التامة على كل شىء ، خلقه السموات والأرض بتلك الصورة البديعة «واختلاف ألسنتكم» ، أى : واختلاف لغاتكم فهذا يتكلم بالعربية ، وآخر بالفارسية وثالث بالرومية .. إلى غير ذلك مما لا يعلم عدده من اللغات ، بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التى يتكلم بها أفرادها ، ومئات اللهجات «وألوانكم» أى : ومن آياته كذلك ، اختلاف ألوانكم ، فهذا أبيض ، وهذا أسود ، وهذا أصفر وهذا أشقر .. مع أن الجميع من أب واحد وأم واحدة وهما آدم وحواء . بل إنك لا تجد شخصين يتطابقان تطابقاً تاماً فى خلقتهما وشكلهما .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٣٠

قال صاحب الكشاف : الألسنة : اللغات ، أو أجناس النطق وأشكاله . خالف - عز وجل - بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة . . ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، ولو اتفقت وتشاكلت ، وكانت ضرباً واحداً ، لوقع التجاهل والالتباس ، وانتعطلت مصالح كثيرة . . وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون » (١) .

« إن في ذلك » الذي أوضحناه لكم « لآيات » بينات « للعالمين » - بفتح اللام - وهي قراءة الجمهور . أي : إن في ذلك لآيات لجميع أصناف العالم من بار وفاجر ، ومؤمن وكافر .

وقرأ حفص - بكسر اللام - أي : إن في ذلك لآيات لأولى العلم والفهم من الناس .

ثم ذكر - سبحانه - آية رابعة فقال : « ومن آياته منامكم » أي : نومكم « بالليل والنهار » لراحة أبدانكم وأذهانكم ، « وابتغاؤكم من فضله » أي : وطلبكم أرزاقكم فيهما من فضل الله وعطائه الواسع .

قال الجمل : قيل في الآية تقديم وتأخير ، ليكون كل واحد مع ما يلائمه ، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل ، وعطف عليه ، لأن حرف العطف قد يقوم مقام الجار والأحسن أن يجعل على حاله ، والنوم بالنهار مما كانت من العرب تعده نعمة من الله ولا سيما في أوقات القيلولة في البلاد الحارة » (٢) .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٣ ص ٤٣٣

(٢) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٣ ص ٣٨٩

« إن فى ذلك » كله « لآيات لقوم يسمعون » هذه التوجيهات سماع تدبر وتفكروا عتبار فيعملون بما يسمعون .

ثم ساق — سبحانه — آية خامسة فقال : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا . . .

أى : ومن آياته — سبحانه — الدالة على قدرته ، أنه يريكم البرق ، فتارة تخافون مما يحدث بعده من صواعق متلفة ، وأمطار مزعجة ، وتارة ترجعون من ورائه المطر النافع ، والغيث المدرار .

وانتصاب « خوفاً وطمعاً » على أنهما مفعول لأجله ، أى : يريكم ذلك من أجل الخوف والطمع ، إذ بهما يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يبطر ولا ييأس من رحمة الله ، « وينزل من السماء ماء » كثيراً « فيحيى به » أى : بسبب هذا الماء « الأرض بعد موتها » أى : بأن يحولها من أرض جدباء هامدة إلى أرض خضراء زاخرا بالنبات « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » هذه الإرشادات ، ويستعملون عقولهم فى الخير لا فى الشر ، وفى الحق لا فى الباطل ، وفى استنباط المعانى الدالة على كمال قدرة الله — تعالى — ورحمته

ثم ذكر — سبحانه — آية سادسة فقال : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره . . . » والمراد بقيامها : ثباتهما وبقاءهما بتلك الصورة العجيبة البديعة .

أى : ومن آياته — سبحانه — الدالة على كمال قدرته ، خلقه للسموات وللأرض . وإبقاؤه لهما على هذه الصورة البديعة ، وقيامهما وثباتهما واستمساكهما على تلك الهيئة العجيبة ، وذلك كله بإرادته وأمره ومشيئته

قال ابن كثير : وشبيه بذلك قوله — تعالى — : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

وقوله : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ، وكان عمر

ابن الخطاب - رضي الله عنه - إذا اجتهد في اليمين قال : لا ، والله الذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي : هي قائمة ثابتة بأمره وتسخيره إياها » (١) .

وقوله — تعالى — : « ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » بيان لامتثالهم لأمره بدون تقاعس ، عند مايدعوهم الداعي للخروج من قبورهم للبعث والحساب ، و « ثم » بعدها كلام محذوف ، و « إذا » الأولى شرطية ، والثانية فجائية ، والداعي هو إسرافيل بأمر الله - تعالى - وقوله : « من الأرض » متعلق بقوله « دعاكم » .

أي : ثم بعد موتكم ووضعكم في قبوركم ، إذا دعاكم الداعي دعوة واحدة من الأرض التي أنتم مستقرون فيها ، إذا أنتم تخرجون من قبوركم مسرعين بدون تلبث أو توقف ، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع .

قال صاحب الكشاف : وإنما عطف هذه الجملة على قيام السموات والأرض بثم ، بيانا لعظم مايكون من ذلك الأمر ، واقتداره - سبحانه - على مثله وهو أن يقول : ياأهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كما قال - تعالى - : ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٢)

وكما في قوله — سبحانه — : « فإنما هي زجرة واحدة . فإذاهم بالساهرة » ، وكما في قوله — عز وجل — : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » (٣) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بآية جامعة لكل معاني القدرة والإيجاد والهيمنة على هذا الكون فقال : (وله من في السموات والأرض) أي : من

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٢١٧

(٢) تفسير الكشاف حـ ٣ ص ٤٧٦

(٣) سورة الإسراء . الآية ٥٢

الملائكة والجن والإنس ، خلقاً ، وملكاً ، وتصرفاً ، كل ذلك له وحده — سبحانه — لا لأحد غيره .

وقوله : « كل له قانتون » مؤكد لما قبله ومقرر له ، أى : كل الخلائق له لا لغيره طائعون خاضعون ، خاشعون ، طوعاً وكرهاً ، إذ لا يمتنع عليه — سبحانه — شىء يريد فعله بهم ، من حياة أو موت ، ومن صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى من أكثر من عشرة أدلة على وحدانية الله — تعالى — وعلى إنفراده بالخلق ، وعلى إمكانية البعث ، ومن هذه الأدلة خلق الإنسان من تراب ، وصيرورته بعد تقلبه فى أطوار التكوين بشراً سوياً ، وإيجاده — سبحانه — الذكور والإناث ، حتى يبقى النوع الإنسانى إلى الوقت المقدر فى علمه — تعالى — وإيجاده للناس على هذه الصورة التى اختلفت معها ألسنتهم وألوانهم ، مع أن أصلهم واحد ، وجعله — تعالى — الليل متاعاً لراحة الناس ، والنهار معاشاً لابتغاء الرزق ، وإنزاله المطر من السماء لإحياء الأرض بالنبات ، وبقاء السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة بأمره وتدبيره ... إلى غير ذلك من الأدلة المبثوثة فى الأنفس والآفاق .

ثم أكد — سبحانه — ما يدل على إمكانية البعث ، فقال — تعالى — : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ... » .

أى : وهو — سبحانه — الذى بدأ الخلق بدون مثال سابق ، ثم يعيد هذه المخلوقات بعد موتها إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء .

والضمير فى قوله : « وهو أهون عليه » للإعادة المفهومة من قوله « ثم يعيده » والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، أى : والعود أو الرد ، أو الإرجاع أهون عليه .

أى : وهو — سبحانه — وحده الذى يخلق المخلوقات من العدم ، ثم يعيدها

إلى الحياة مرة أخرى فى الوقت الذى يريده ، وهذه الإعادة للأموات أهون عليه ، أى : أسهل عليه من البدء .

وهذه الأسهلية على طريقة التمثيل والتقريب ، بما هو معروف عند الناس من أن إعادة الشىء من مادته الأولى ، أسهل من ابتدائه .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد وضح هذا المعنى فقال : قوله : «وهو أهون عليه» أى : فيما يجب عندكم ، وينقاس على أصولكم ، ويقتضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة شىء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها وتعتذرون للصانع إذا خطىء فى بعض ما ينشئه بقولكم : أول الغزو أخرق ، حتى مرن عليها وهانت عليه .

فإن قلت لم أخرت الصلة فى قوله : «وهو أهون عليه» وقدمت فى قوله «هو على هين» ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقيل : هو عليه هين ، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هم ، أى : شيخ فان وعاقر وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى ... (١) .

ومنهم من يرى أن أهون هنا بمعنى هين ، أى : إرجاعكم إلى الحياة بعد موتكم هين عليه .

والعرب تجعل أفعل بمعنى فاعل فى كثير من كلامهم ، ومنه قول الشاعر:

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعـز وأطـول

أى : بنا لنا بيتاً دعائمه عزيزة طويلة ومنه قولهم : الله أكبر أى: كبير .

وقوله ـ تعالى ـ : «وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ...» أى :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص٤٥٦

وله — سبحانه — الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله، لا في السموات ولا في الأرض، إذ لا يشاركه أحد في ذاته أو صفاته فهو — سبحانه — ليس كمثله شيء.

«وهو العزيز» الذي يغلب ولا يغلب «الحكيم» في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته.

. . .

وبعد هذا الطواف المتنوع في آفاق الأنفس، وفي أعماق هذا الكون، ضرب — سبحانه — مثلا لا مجال للجدل فيه، لوضوحه واعتماده على المنطق السليم، وأمر رسوله (ﷺ) أن يمضي في طريقه المستقيم، كما أمر المؤمنين بأن يلتجئوا إليه — سبحانه — وحده، وأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضبه، فقال — تعالى — :

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

و « من » فى قوله ـ سبحانه ـ : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » ابتدائية ، والجار والمجرور فى محل نصب ، صفة لقوله : « مثلا » .

أى : ضرب لكم ـ أيها الناس ـ مثلا ، يظهر منه بطلان الشرك ظهوراً واضحاً ، وهذا المثل كائن من أحوال أنفسكم ، التى هى أقرب شىء لديكم .

قال القرطبى : والآية نزلت فى كفار قريش ، كانوا يقولون فى التلبية : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . . . (١) .

وقوله ـ تعالى ـ : « هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم » تصوير وتفصيل للمثل ، والاستفهام للإنكار والنفى . و « من » الأولى للتبعيض ، والثانية لتأكيد النفى ، وقوله « شركاء » مبتدأ ، وخبره « لكم » . وقوله : « مما ملكت أيمانكم » متعلق بمحذوف حال من شركاء .

وقوله : (فأنتم فيه سواء) جواب للاستفهام الذى هو بمعنى النفى ، والجملة مبتدأ وخبر .

وقوله : (تخافونهم) خبر ثان لأنتم ، وقوله : (كخيفتكم أنفسكم) صفة محذوف ، أى : تخافونهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم .

والمعنى : ضرب الله ـ تعالى ـ لكم ـ أيها الناس ـ مثلا منتزعا من أنفسكم التى هى أقرب شىء إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن يشاركم فى أموالكم التى رزقناكم إياها ، عبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم فى البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم ، أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين لكم فى جواز التصرف فى تلك الأموال .

فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم ـ الذين هم مثلكم فى البشرية ، والذين

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣

لم تخلقوهم بل نحن الذين خلقناكم وخلقناهم - فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة، مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكم ولهم، والرازق لكم ولهم؟!!

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم غيركم فى أموالكم، ورضيتم أن تشركوا مع الله - تعالى - غيره فى العبادة، مع أنه - سبحانه - هو الخالق والرازق لكل شىء.

فالمقصود من الآية الكريمة، إبطال الشرك بأبلغ أسلوب، وأوضح بيان، وأصدق حجة، وأقوى دليل.

ولذا ختمها - سبحانه - بقوله: (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى: مثل ذلك التفصيل الجلى الواضح، نفصل الآيات الدالة على وحدانيتنا لقوم يعقلون هذه الأمثال، وينتفعون بها فى إخلاص العبادة لله الواحد القهار.

قال الإمام القرطبى: قال بعض العلماء: هذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين، لافتقار بعضهم إلى بعض، ونفيها عن الله - سبحانه -، وذلك أنه قال - سبحانه -: (ضرب لكم مثلا من أنفسكم..) فيجب أن يقولوا: ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا. فيقال لهم: فكيف يتصور أن تنزهوا أنفسكم عن مشاركة عبيدكم، وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى، حكم فاسد، وقلة نظر وعمى قلب!!

فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة، والخلق كلهم عبيد الله - تعالى - فيبطل أن يكون شىء من العالم شريكا لله - تعالى - فى شىء من أفعاله..

ثم قال - رحمه الله -: وهذه المسألة أفضل للطالب، من حفظ ديوان كامل فى الفقه، لأن جميع العبادات البدنية، لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب فافهم ذلك) (١).

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن هؤلاء المشركين لم ينتفعوا بهذه الأمثال لاستيلاء الجهل والعناد عليهم فقال : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . . . . » .

أى : لم ينتفع هؤلاء الظالمون بهذا المثل الجلى فى إبطال الشرك ، بل لجوا فى كفرهم ، واتبعوا أهواءهم الزائفة ، وأفكارهم الفاسدة ، وجهالاتهم المطبقة دون أن يصرفهم عن ذلك علم نافع « فمن يهدى من أضل الله » أى: إذا كان هذا هو حالهم ، فمن الذى يستطيع أن يهدى إلى الحق ، من أضله الله ـ تعالى ـ عنه بسبب زيغه وإستحبابه العمى على الهدى .

إنه لا أحد يستطيع ذلك « ومالهم من ناصرين » ينصرونهم من عقابه ــ سبحانه ــ لهم .

ثم أمر سبحانه ـ رسوله صلى الله عليه وسلم ـ أن يثبت على الحق الذى هداه ــ عز وجل ــ إليه فقال :

فأقم وجهك للدين حنيفا ... » والفاء هى الفصيحة ، وقوله : « أقم » من الإقامة على الشىء والثبات عليه ، وعدم التحول عنه .

وقوله : « حنيفا » من الحنف ، وهو الميل من الباطل إلى الحق ، وضده الجنف . و « حنيفا » حال من فاعل « أقم » .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك ـ أيها الرسول الكريم ـ من بطلان الشرك فاثبت على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، وأقبل على هذا الدين الذى أوحاه الله إليك ، بدون التفات عنه ، أو ميل إلى سواه .

قال صاحب الكشاف : قوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا » أى : فقوم وجهك له وعدله ، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا . وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشىء عقد عليه طرفه ، وسدد إليه نظره ، وقوم له وجهه ، مقبلا به عليه .

والمراد بالفطرة فى قوله - تعالى - : «فطرة الله التى فطر الناس..» الملة.
أى : ملة الإسلام والتوحيد.

أو المراد بها : قابلية الدين الحق، والتهيؤ النفسى لادراكه. والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة.

أى : اثبت — أيها الرسول الكريم — على هذا الدين الحق، والزموا — أيها الناس — فطرة الله، وهى ملة الحق، التى فطر الناس عليها، وخلقهم قابلين لها.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية. «يقول - تعالى - : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التى فطر الله الخلق عليها، فإنه - تعالى - فطر خلقه على معرفته وتوحيده.

وفى الحديث : «إنى خلقت عبادى حنفاء، فاجتالتهم - أى حولتهم - الشياطين عن دينهم....».

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: فطرة الله التى فطر الناس عليها....»(١).

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحد الخطاب أولا، ثم جمع؟ قلت : خوطب رسول الله - ﷺ - أولا، وخطاب الرسول لأمته، مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص...»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٤٠.

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٩.

وقوله : « لا تبديل لخلق الله » تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التى فطر — سبحانه — الناس عليها .

أى : ألزموا فطرة الله التى هى دين الإسلام ، وقبول تعاليمه والعمل بها لأن هذا الدين قد ارتضاه الله — تعالى — لكم ، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه لكم .

و « ذلك » الدين الذى اختاره — سبحانه — لكم ، هو « الدين القيم » أى : القويم المستقيم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

فاسم الإشارة يعود إلى الدين الذى أمرنا — سبحانه — بالثبات عليه ، فى قوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا » .

وقوله — تعالى — : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » استدراك لبيان موقف الناس من هذا الدين القيم .

أى : ذلك الدين الذى ارتضيته لكم هو الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، واتباعهم الأهواء الزائفة ، والتقاليد الفاسدة .

ثم حرضهم — سبحانه — على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا الدين القيم فقال : « منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة . . . » :

قال القرطبى : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما : أنه القطع . ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع ، فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله — عز وجل — بالطاعة والثانى : أن أصله الرجوع ، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة . — ولفظ « منيبين » منصوب على الحال . . . »(١) .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٣١ .

والمعنى : أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده ، حالة كونكم راجعين إليه بالتوبة والطاعة ، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة ، ومتقين له في كل أحوالكم ، ومداومين على إقامة الصلاة في أوقاتها بخشوع واطمئنان .

« ولا تكونوا من المشركين » المبدلين لفطرة الله - تعالى - ، المتبعين لأهوائهم وشهواتهم .

وقوله « من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا » بدل مما قبله .

أي : ولا تكونوا من المشركين ، الذين اختلفوا في شأن دينهم اختلافات شتى على حسب أهوائهم ، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة .

« كل حزب بما لديهم فرحون » أي : كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل ، وملة فاسدة ، وعقيدة زائفة ، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلهم ، وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق . . .

• • •

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس في السراء والضراء وعندما يوسع الله - تعالى - في أرزاقهم ، وعندما يضيق عليهم هذه الأرزاق ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ
رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ
فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ
بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ
ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

أى : « وإذا مس الناس ضر » من قحط أو مصيبة فى المال أو الولد ؛ « دعوا ربهم منيبين إليه » أى : إذا نزل بهم الضر ، أسرعوا بالدعاء إلى الله - تعالى - متضرعين إليه أن يكشف عنهم مانزل بهم من بلاء .

هذا حالهم عند الشدائد والكروب ؛ أما حالهم عند العافية والغنى وتفريج الهموم ،فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) .

و (إذا) الأولى شرطية ، والثانية فجائية .

أى : هم بمجرد نزول الضر بهم يلجأون إلى الله -تعالى- لازالته ؛ ثم إذا ما كشفه عنهم ، وأحاطهم برحمته ، أسرع فريق منهم بعبادة غيره - سبحانه - .

وقوله — تعالى — : «إذا فريق منهم» : إنصاف وتشريف لفريق آخر من الناس ، من صفاتهم أنهم يذكرون الله — تعالى — فى كل الأحوال ويصبرون عند البلاء ، ويشكرون عند الرخاء .

والتنكير فى قوله ـ سبحانه ـ «ضر ، ورحمة» للإشارة إلى أن هذا النوع من الناس ، يجزعون عند أقل ضر ، ويبطرون ويطغون لأدنى رحمة ونعمة

واللام فى قوله — تعالى — : «ليكفروا بما آتيناهم» هى العاقبة . أى : فعلوا ما فعلوا من الجزع عند الضر ، ومن البطر عند النعم ، ليكون مآل حالهم إلى الكفر والجحود لنعم الله ، وإلى سوء العاقبة والمصير .

ثم التفت إليهم — سبحانه — بالخطاب مهدداً ومتوعداً فقال : «فتمتعوا فسوف تعلمون» أى : فتمتعوا ـ أيها الجاحدون لنعم الله ـ بهذا المتاع الزائل من متع الحياة الدنيا ، فسوف تعلمون ماسيترتب على ذلك من عذاب مهين .

وقوله ـ تعالى — : «أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون» التفات من الخطاب إلى الغيبة ، على سبيل التحقير لهم ، والتهوين من شأنهم ، والاستفهام للنفى والتوبيخ

والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : هؤلاء الذين أشركوا معنا غيرنا فى العبادة . هل نحن أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد لهم بأن شركهم لا يخالف الحق ، وتنطق بأن كفرهم لا غبار عليه ؟

كلا ، إننا ما أنزلنا عليهم شيئا من ذلك ، وإنما هم الذين وقعوا فى الشرك ، بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فالآية الكريمة تتهكم بهم لسفههم وجهلهم ، وتنفى أن يكون شركهم مبنياً على دليل أو مايشبه الدليل ، أو أن يكون هناك من أمرهم به سوى تقاليدهم الباطلة ، وأهوائهم الفاسدة ، وأفكارهم الزائفة .

ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال بعض النفوس البشرية فى حالتى العسر واليسر ، فقال - تعالى - : « وإذا أذقنا الناس رحمة، من صحة أو غنى أو أمان « فرحوا بها » أى : فرحوا بها فرح البطر الأشر ، الذى لا يقابل نعم الله - تعالى - بالشكر ، ولا يستعملها فيما خلقت له .

فالمراد بالفرح هنا : الجحود والكفران للنعم ، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم .

« وإن تصبهم سيئة » أى : شدة أو مصيبة « بما قدمت أيديهم » أى : بسبب شؤم معاصيهم ، وإهمالهم لشكر الله - تعالى - على نعمه « إذاهم يقنطون» أى : أسرعوا باليأس من رحمة الله ، وقنطوا من فرجه، واسودت الدنيا فى وجوههم ، شأن الذين لايعرفون سنن الله - تعالى - فى خلقه ، والذين يعبدون الله على حرف ، فهم عند السراء جاحدون مغرورون ، وعند الضراء قانطون يائسون .

وعبر - سبحانه - فى جانب الرحمة بإذا ، وفى جانب المصيبة بإن ، للإشعار بأن رحمته - تعالى - بعباده متحققة فى كل الأحوال ، وأن ما ينزل بالناس من مصائب ، هو بسبب ما اجترحوه من ذنوب .

ونسب - سبحانه - الرحمة إلى ذاته فقال : « وإذا أذقنا الناس رحمة . . » دون السيئة فقد قال : « وإن تصبهم سيئة » لتعليم العباد الأدب مع خالقهم - عز وجل - ، وإن كان الكل بيده - سبحانه - وبمشيئته

وشبيه بهذا قوله — تعالى — : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدا » .

والتعبير بإذا الفجائية فى قوله « إذاهم يقنطون » ، للإشارة إلى سرعة يأسهم من رحمة الله - تعالى - ، حتى ولو كانت المصيبة هينة يسيرة ، وذلك لضعف يقينهم وإيمانهم . إذ القنوط من رحمة الله ، يتنافى مع الإيمان الحق .

ثم عقب سبحانه - على أحوالهم هذه بالتعجيب من شأنهم ، وبالتقريع لهم على جهلهم ، فقال : « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر... » .

أى : أجهل هؤلاء الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله — تعالى — بمقتضى حكمته ، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء منهم ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل .

إن واقع الناس يشهد ويعلن : أن الله — تعالى — يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فما لهؤلاء القوم ينكرون هذا الواقع بأفعالهم القبيحة، حيث إنهم يبطرون عند السراء ، ويقنطون عند الضراء ؟ فالمقصود بالآية الكريمة توبيخهم على عدم فهمهم لسنن الله فى خلقه .

ثم ختم — سبحانه — الآية بقوله : « إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أحوال الناس ، ومن قدرتنا على كل « لآيات » واضحات ، وعبر بينات لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه ، ويعملون بما يقتضيه إيمانهم .

* * *

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك . ما يجب على المسلم بالنسبة

للمال الذى وهبه الله إياه ، فقال — تعالى — :

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

والخطاب فى قوله — تعالى — : « فآت ذا القربى حقه . . . » للنبى (ﷺ) ولكل من يصلح له من أمته .

والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من أن بسط الأرزاق وقبضها بيدى وحدى ، فأعط — أيها الرسول الكريم — ذا القربى حقه من المودة والصلة والإحسان ، وليقتد بك فى ذلك أصحابك وأتباعك .

وأعط — أيضاً — « المسكين » الذى لا يملك شيئا ذا قيمة ، حقه من الصدقة والبر ، وكذلك «ابن السبيل» وهو المسافر المنقطع عن ماله فى سفره ، ولو كان غنياً فى بلده .

وقدم — سبحانه — الأقارب ؛ لأن دفع حاجتهم واجب من الواجبات التى جعلها — سبحانه — للقريب على قريبه .

قال القرطبى : «واختلف فى هذه الآية فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث .

وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البر على كل حال ، وهو الصحيح، قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله — عز وجل — ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجه . . . (١) .

وقال الجمل فى حاشيته : وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة ، يدل على أن ذلك فى صدقة التطوع . وقد احتج أبو حنيفة - رحمه الله - بهذه الآية على وجوب نفقة المحارم ، والشافعى - رحمه الله - قاس سائر الأقارب - ما عدا الفروع والأصول - على ابن العم ؛ لأنه لا ولادة بينهم .

ثم قال : وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للإنسان مال زائد ، لأن المقصود هنا : الشفقة العامة ، والفقير داخل فى المسكين . . (٢).

ثم بين — سبحانه — الآثار الطيبة المترتبة على هذا البر والعطاء فقال: « ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » .

أى : ذلك الإيتاء لهؤلاء الثلاثة ، خير وأبقى عند الله - تعالى - للذين يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله ، وأولئك المتصفون بتلك الصفات الحميدة هم الكاملون فى الفلاح ، والظفر بالخير فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن حضهم على صلة الأقارب والمساكين وابن السبيل ، نفرهم من تعاطى الربا فقال : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله . . »

والربا : الزيادة مطلقا . يقال : ربا الشىء يربو إذا زاد ونما ، ومنه قوله — تعالى — : « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » . أى : زادت .

قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن المراد بالربا هنا . الزيادة المعروفة فى المعاملة التى حرمها الشارع .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٥

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٩٤

ويشهد لذلك ماروى عن السدى ، من أن الآية نزلت فى ربا ثقيف ، كانوا يرابون ، وكذلك كانت قريش تتعاطى الربا . . .

وعن ابن عباس وغيره : أن المراد به هنا العطية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، وعليه فتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب للزيادة . . »(١)

ويبدو لنا أن المراد بالربا هنا ، الربا الذى حرمه الله - تعالى - بعد ذلك تحريما قاطعا ، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج ؛ حتى إذا جاء التحريم النهائى له ، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم.

قال صاحب الكشاف : هذه الآية فى معنى قوله - تعالى - « يمحق الله الربا ويربى الصدقات . . » سواء بسواء ، يريد . وما أعطيتم أكلة الربا « من ربا ليربو فى » أموالهم . أى : ليزيد ويزكو فى أموالهم . فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه . . . (٢) .

ثم حض - سبحانه - على التصدق فى سبيله فقال : « وما آتيتم من زكاة » أى من صدقة تتقربون بها إلى الله . و « تريدون » بأدائها « وجه الله » أى : رضاه وثوابه . . .

« فأولئك » الذين يفعلون ذلك « هم المضعفون » أى : ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب والعطاء الكريم . فالمضعفون جمع مضعف - بكسر العين - على أنه اسم فاعل من أضعف . إذا صار ذا ضعف - بكسر فسكون - كأقوى وأيسر . إذا صار ذا قوة ويسار .

وقال - سبحانه - : « فأولئك هم المضعفون » ولم يقل : فأنتم المضعفون . لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة . كأنه قال للملائكة : فأولئك الذين يريدون وجهى بصدقاتهم هم المضعفون . فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٤٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٨١ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على الناس فقال . « الله الذى خلقكم » على غير مثال سابق « ثم رزقكم » من فضله بأنواع من الرزق الذى لا غنى لكم عنه فى معاشكم « ثم يميتكم » بعد انقضاء أعماركم فى هذه الحياة « ثم يحييكم » يوم القيامة للحساب والجزاء .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء » للانكار والنفى . أى : ليس من شركائكم الذين عبدتموهم من يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك فكيف اتخذتموهم آلهة وأشركتموهم معى فى العبادة ؟ إن الله - تعالى - وحده هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى وهو المميت .

« سبحانه وتعالى عما يشركون » أى : تنزه وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين وعن جهل أولئك الجاهلين .

* * *

وبعد هذا التوجيه الحكيم ، يسوق — سبحانه — الآثار السيئة التى تترتب على الكفر والمعاصى . ويأمر بالاعتبار بالسابقين . ويبين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار فيقول :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ
فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي
عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ
إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هنا . الفيافى . وبالبحر : الأمصار والقرى . ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف . وبالبحر : البحر المعروف .

والقول الأول أظهر . وعليه الأكثر . ويؤيده ما ذكره ابن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صالح ملك أيلة . وكتب له ببحره - يعنى ببلده(١) .

والمعنى: ظهر الفساد فى البر والبحر . ومن مظاهر ذلك انتشار الشرك والظلم

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٦ .

والقتل وسفك الدماء، والأحقاد والعدوان، ونقص البركة في الزروع والثمار والمطاعم والمشارب، وغير ذلك مما هو مفسدة وليس بمنفعة ..

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد فيها، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «الحد يقام في الأرض، أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا».

والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت، ابتعد الناس، أو أكثرهم، أو كثير منهم، عن تعاطي المحرمات. وإذا ارتكبت المعاصي كان سببا في محق البركات... وكلما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات وقد ثبت في الحديث الصحيح: «إن الفاجر إذا مات تستريح منه العبـــاد والبلاد والشجر والدواب»(١).

وقوله ـ تعالى ـ: «بما كسبت أيدي الناس». بيان لسبب ظهور الفساد. أي: عم الفساد وطم في البر والبحر، بسبب اقتراف الناس المعاصي، وانهماكهم في الشهوات، وتغافلهم من كل ما أمرهم الله ـ تعالى ـ به، أو نهاهم عنه، كما قال ـ تعالى ـ: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير».

فظهور الفساد وانتشاره، لا يتم عبثا أو اعتباطا، وإنمـا يتم بسبب إعراض الناس عن طاعة الله ــ تعالى ــ، وارتكابهم للمعاصي.

ثم بين ــ سبحانه ــ ما ترتب على الوقوع في المعاصي من بلاء واختبار فقال: «ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون».

واللام في «ليذيقهم» للتعليل وهي متعلقة بظهر. أي: ظهر الفساد...

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٦

ليذيق — سبحانه الناس نتائج بعض أعمالهم السيئة ، كى يرجعوا عن غيهم وفسقهم ، ويعودوا إلى الطاعة والتوبة .

ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف ، أى :عاقبهم بانتشار الفساد بينهم، ليجعلهم يحسون بسوء عاقبة الولوغ فى المعاصى ، ولعلهم يرجعون عنها إلى الطاعة والعمل الصالح .

ثم يلفت — سبحانه — أنظار الناس إلى سوء عاقبة من ارتكس فى الشرك والظلم ، فيقول : « قل سيرا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، كان أكثرهم مشركين .

أى :قل - أيها الرسول الكريم -للناس:سيروا فى الأرض سير المتأملين المعتبرين ، لتروا بأعينكم ، كيف كانت عاقبة الظالمين من قبلكم . . .

لقد كانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، بسبب إصرار أكثرهم على الشرك والكفر ، وانغماس فريق منهم فى المعاصى والفواحش .

فالمراد بالسير ، ما يترتب عليه من عظات وعبر ، حتى لا تكون عاقبة اللاحقين ، كعاقبة السابقين ، فى الهلاك والنكال .

ثم أكد - سبحانه - ماسبق أن أمر به رسوله - صلى الله عليه وسلم - من ثبات على الحق فقال . « فأقم وجهك للدين القيم ... » أى:إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم -من سوء عاقبة الأشرار ،وحسن عاقبة الأخيار : فاثبت على هذا الدين القويم ، الذى أوحيناه إليك ، ولا تتحول عنه إلى جهة ما .

« من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله » أى : أثبت على هذا الدين القيم ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى لا يقدر أحد على رده أو دفع عذابه إلا الله — تعالى — وحده .

ثم بين -سبحانه-أحوال الناس فى هذا اليوم فقال. «يومئذ يصدعون»

أى : يتفرقون وأصله يتصدعون ، فقلبت تاؤه صادا وأدغمت ،
والتصدع التفرق : يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

أى : لن يتفرقا .

والمعنى . اثبت على هذا الدين ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى يتفرق فيه الناس إلى فريقين ثم بين - سبحانه - الفريق الأول فقال . «من كفر فعليه كفره » أى . من كفر من الناس ، فعاقبة كفره واقعة عليه لا على غيره ، وسيتحمل وحده ما سيترتب على ذلك من عذاب مهين .

قال صاحب الكشاف ، قوله «فعليه كفره » كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار ، لأن من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة »(١).

ثم بين - سبحانه - الفريق الثانى فقال . ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون أى . ومن عمل فى دنياه عملا صالحا ، فإنه بسبب هذا العمل يكون قد مد وسوى لنفسه مكانا مريحا يستقر فيه فى الآخرة .

والمهاد : الفراش ومنه مهاد الصبى أى فراشه . ويقال مهدت الفراش مهدا ، أى : بسطته ووطأته . ومهدت الأمور . أى . سويتها وأصلحتها .

فالجملة الكريمة تصوير بديع للثمار الطيبة التى تترتب على العمل الصالح فى الدنيا للدنيا ، حتى لكأن من يعمل هذا العمل ، يعد لنفسه فى الآخرة مكانا ممهدا ، ومضجعا هنيئا ، ينزل فيه وهو فى أعلى درجات الراحة والنعيم .

قال ابن جرير : قوله - تعالى - « فلأنفسهم يمهدون » أى . فلأنفسهم يستعدون ، ويوطئون المضجع ، ليسلموا من عقاب ربهم ، وينجوا من عذابه ، كما قال الشاعر :

امهد لنفسك حان السقم والتلف ولا تضيعن نفسا ما لها خلف (٢)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٨٣

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢١ ص ٣٢ .

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته حكمته وعدالته فقال : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله . إنه لا يحب الكافرين » .

أي : فعل مافعل - سبحانه - من تقسيم الناس إلى فريقين . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات . الجزاء الحسن الذى يستحقونه . وليعطيهم العطاء الجزيل من فضله . لأنه يحبهم ، أما الكافرون فإنه - سبحانه - لا يحبهم ولا يرضى عنهم .

* * *

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن آيات الله - تعالى - الدالة على قدرته ، وعن مظاهر فضله على الناس ورحمته بهم ، وعن الموقف الجحودى الذى وقفه بعضهم من هذه النعم . قال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ٣٢ .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ
وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ
ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ
مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا
تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ
عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله - سبحانه - : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ... »
بيان لأنواع أخرى من الظواهر الكونية الدالة على قدرته - عز وجل - .

أى : ومن الآيات والبراهين الدالة على وحدانية الله — تعالى — ونفاذ قدرته ، أنه — سبحانه — يرسل بمشيئته وإرادته الرياح ، لتكون بشارة بأن من ورائها أمطارا ، فيها الخير الكثير للناس .

قال الآلوسى : قوله : « ومن آياته أن يرسل الرياح » أى : الجنوب ، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، والصبا : ومهبها من مطلع الثريا إلى إلى بنات نعش . والشمال : ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر ، فإنها رياح الرحمة . أما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل فريح العذاب ... »(١) .

وقوله : « وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله . . . » بيان للفوائد التى تعود على الناس من إرسال الرياح التى تعقبها الأمطار ، وهو متعلق بقوله « يرسل » .

أى يرسل الرياح مبشرات بالأمطار ويرسلها ليمنحكم من رحمته الخصب والنماء لزرعكم ، ولتجرى الفلك عند هبوبها فى البحر بإذنه — تعالى — ولتبتغوا أرزاقكم من فضله — سبحانه — عن طريق الأسفار ، والانتقال من مكان إلى آخر ، ولكى تشكروا الله — تعالى — على هذه النعم فإنكم إذا شكرتموه — سبحانه — على نعمه زادكم منها .

وقوله — تعالى — : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات . . . » كلام معترض بين الحديث عن نعمة الرياح . لتسلية الرسول (ﷺ) عما لحقه من قومه من أذى .

أى ولقد أرسلنا من قبلك — أيها الرسول الكريم — رسلا كثيرين ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٥١

إلى قومهم ليهدوهم إلى الرشد ، وجاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات التى تدل على صدقه .

وقوله « فانتقمنا من الذين أجرموا » معطوف على كلام محذوف . أى : أرسلناهم بالحجج الواضحات ، فمن أقوامهم من آمن بهم ، ومنهم من كذبهم ، فانتقمنا من المكذبين لرسلهم .

«وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» أى : وكان نصر المؤمنين حقاً أوجبناه على ذاتنا ، فضلا منا وكرما ، وتكريماً وإنصافاً لمن آمن بوحدانيتنا ، وأخلص العبادة لنا .

وحقاً خبر كان ، ونصر المؤمنين إسمها وعلينا متعلق بقوله حقاً .

قال ابن كثير قوله : «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرماً وتفضلا ، كقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

وعن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من أمرىء مسلم يرد عن عرض أخيه ، إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا (ﷺ) هذه الآية ، (١) .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن الرياح وما يترتب عليها من منافع فتقول : « الله الذى يرسل الرياح » بقدرته ومشيئته .

«فتثير سحابا» أى : هذه الرياح التى يرسلها الله ـ تعالى ـ تتحرك فى الجو وفق إرادته ـ سبحانه ـ فتحرك السحاب وتنشره من مكان إلى آخر .

« فيبسطه فى السماء كيف يشاء » أى فيبسط الله ـ تعالى ـ هذا السحاب

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٨

فى طبقات الجو ، بالكيفية التى يختارها - سبحانه - ويريدها ، بأن يجعله تارة متكاثفاً ، وتارة متناثراً ، وتارة من جهة الشمال ، وتارة من جهة غيرها.

« ويجعله كسفا » أى : ويجعله قطعاً بعضها فوق بعض تارة أخرى ، والكسف : جمع كسفه ، وهى القطعة من السحاب .

« فترى الودق » أى : المطر « يخرج من خلاله » أى يخرج ويتساقط من خلاله هذا السحاب ، ومن بين ذراته .

«فإذا أصاب به » أى : بهذا المطر « من يشاء » إصابته به «من عباده» بأن ينزله على أراضيهم وعلى بلادهم « إذاهم يستبشرون » أى : يفرحون بذلك ، لأنه يكون سبباً فى حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم .

وأعرف الناس بنعمة المطر ، أولئك الذين يعيشون فى الأماكن البعيدة عن الأنهار كأهل مكة ومن يشبهونهم ممن تقوم حياتهم على مياه الأنهار .

ثم بين — سبحانه — حالهم قبل نزول تلك الأمطار عليهم فقال : «وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » .

وإن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، والضمير فى «ينزل» يعود للمطر ، وفى قوله « من قبله» يعود لنزول المطر - أيضاً - على سبيل التأكيد ، وقوله : « لمبلسين » خبر كان ، والإبلاس : اليأس من الخير والسكوت ، والإنكسار غماً وحزناً . يقال : أبلس الرجل ، إذا سكت على سبيل اليأس والذل والانكسار .

أى : هم عند نزول الأمطار يستبشرون ويفرحون ، ولو رأيت حالهم قبل نزول الأمطار لرأيتهم فى غاية الحيرة والقنوط والإبلاس ، لشدة حاجتهم إلى الغيث الذى طال إنتظارهم له ، وتطلعهم إليه دون أن ينزل .

قال صاحب الكشاف وقوله : « من قبله » من باب التكرير والتوكيد، كقوله - تعالى - : فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها » ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر إغتمامهم بذلك »(١) .

ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة فقال : « فانظر إلى آثار رحمة الله . . . . » والفاء للدلالة على سرعة الانتقال من حالة اليأس إلى الاستبشار .

أى . فانظر - أيها العاقل - نظرة تفكر واتعاظ واستبصار ، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر ، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح ، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة .

وقوله - تعالى - : « كيف يحيى الأرض بعد موتها » فى محل نصب على تقدير الخافض . أى : فانظر إلى آثار رحمة الله بعد نزول المطر وانظر وتأمل كيف يحيى الله - تعالى - بقدرته ، الأرض بعد موتها بأن يجعلها خضراء يانعة ، بعد أن كانت جدباء قاحلة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - « ان ذلك لمحى الموتى » يعود على الله - تعالى - . أى : إن ذلك الإله العظيم الذى أحيا الأرض بعد موتها ، لقادر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق بينهما بالنسبة لقدرة الله التى لا يعجزها شىء .

« و هو » - سبحانه - « على كل شىء قدير » ومن جملة الأشياء المقدور عليها ، إحياء الموتى .

وهكذا يسوق القرآن الكريم الأدلة على البعث ، بأسلوب منطقى ، منتزع من واقع الناس ، ومن المشاهد التى يرونها فى حياتهم .

وبعد ان صور - سبحانه - أحوال الناس عند رؤيتهم للرياح التى تثير

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٨٥

السحب المحملة بالأمطار ، وأنهم عند رؤيتها يفرحون ويستبشرون بعد أن صور ذلك بأسلوب بديع ، أتبع ذلك بتصوير حالهم عندما يرون ريحاً يحمل لهم الرمال والأتربة ، وتضر بزورعاتهم فقال - تعالى - « ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون » .

والضمير فى « رأوه » يعود إلى النبات المفهوم من السياق .

أى : هذا حال الناس عند مايرون الرياح التى تحمل لهم الأمطار ، أما إذا أرسلنا عليهم ريحاً معها الأتربة والرمال ، فرأوا نباتهم وزروعهم قد أصفرت واضمحلت وأصابها مايضرها أو يتلفها . . فإنهم يظنون من بعد إرسالها تلك الريح عليهم ، يكفرون بنعم الله ، ويجحدون آلاءه السابقة ، ويقابلون ما أرسلنا عليهم بالسخط والضيق ، لا بالاستسلام لقضائنا ، وملازمة طاعتنا .

قال الآلوسى ماملخصه : واللام قوله : « ولئن » موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، والفاء فى « فرأوه فصيحة » ، واللام فى قوله « لظلوا » لام جواب القسم السادّ مسد الجوابين ، والماضى بمعنى المستقبل . . وفيما ذكر - سبحانه - من ذمهم على عدم تثبتهم مالا يخفى ، حيث كان من الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله - تعالى - فى كل حال ، ويلجأوا إليه بالاستغفار ، إذا احتبس عنهم المطر ، ولا ييأسوا من روح الله - تعالى - ويبادروا إلى الشكر والطاعة ، إذا أصابهم برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ، فعكسوا الأمر ، وأبوا مايجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم . . . (١)

ثم سلى - سبحانه - نبيه عما لحقه منهم من أذى بعد أن ذكر له جانباً من من تقلب أحوالهم ، فقال - تعالى - : « فإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٥٤

أى : فاصبر — أيها الرسول — لحكم ربك ، واثبت على ما أنت عليه من حق ، فإنك لاتسمع الموتى ، إذا ناديتهم ، ولاتسمع الصم الدعاء ، إذا ما دعوتهم أو وعظتهم .

وقوله «إذا ولوا مدبرين» بيان لإعراضهم عن الحق ، بعد بيان كونهم كالأموات وكالصم .

ثم وصفهم بالعمى فقال : «وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم» بسبب فقدهم الانتفاع بأبصارهم ، كما فقدوا الانتفاع ببصائرهم .

«إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا» أى : ماتستطيع أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا «فهم مسلمون» أى : منقادون للحق ومتبعون له .

فالآيتان الكريمتان تسلية للرسول (ﷺ) عما أصابه من هؤلاء المشركين ، وعن إخفاق جهوده مع كثير منهم ، لانطماس بصائرهم ، حيث شبههم — سبحانه — بالموتى وبالصم والعمى ، فى عدم انتفاعهم بالوعظ والإرشاد .

• • •

وبعد هذا التطواف فى أعماق الأنفس والآفاق . أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، تذكر الناس بمراحل حياتهم ، وبأحوالهم يوم القيامة ، وبفضائل القرآن الكريم ، وتأمر النبى (ﷺ) بالصبر والثبات . . . قال — تعالى — :

ٱللَّهُ

ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ
مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟
يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى
كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ
وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قال القرطبي ما ملخصه : قوله – تعالى – : « الله الذي خلقكم من ضعف ... » استدلال آخر على قدرته – تعالى – ومعنى « من ضعف » من نطفة ضعيفة ، أو في حال ضعف ، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر ... وقرأ الجمهور بضم الضاد ، وقرأ عاصم وحمزة بفتحها ،

والضعف — بالضم والفتح — خلاف القوة ، وقيل بالفتح فى الرأى ، وبالضم فى الجسد . . . (١) .

وقال — سبحانه — خلقكم من ضعف ، ولم يقل خلقكم ضعافا . . للإشعار بأن الضعف هو مادتهم الأولى التى تركب منها كيانهم ، فهو شامل لتكوينهم الجسدى ، والعقلى ، والعاطفى ، والنفسى . . الخ .

أى : الله — تعالى — بقدرته ، هو الذى خلقكم من ضعف ترون جانباً من مظاهره فى حالة طفولتكم وحداثة سنكم .

« ثم جعل » — سبحانه — « من بعد ضعف قوة » أى : ثم جعل لكم من بعد مرحلة الضعف مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة بكل صورها الجسدية والعقلية والنفسية .

« ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » أى : ثم جعل من بعد مرحلة القوة ، مرحلة ضعف آخر ، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه فى الضعف ، وهى مرحلة الشيب والهرم والشيخوخة التى هى أرذل العمر ، وفيها يصير الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير فى كثير من أحواله .

« يخلق » — سبحانه — « ما يشاء » خلقه « وهو العليم » بكل شىء « القدير » على كل شىء .

فأنت ترى أن هذه الآية قد جمعت مراحل حياة الإنسان بصورها المختلفة .

ثم بين — سبحانه — ما يقوله المجرمون عند ما يبعثون من قبورهم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٤٦

الحساب فقال : «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة» .

والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من عمر الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ، والمراد بقيامها : حصولها ووجودها ، وقيام الخلائق فى ذلك الوقت للحساب ، أى : وحين تقوم الساعة ؛ ويرى المجرمون أنفسهم وقد خرجوا من قبورهم للحساب بسرعة ودهشة يقسمون بأنهم ما لبثوا فى قبورهم أو فى دنياهم ، غير وقت قليل من الزمان .

قال ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم - أيضاً - فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة ، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم (١)

وقوله : « كذلك كانوا يؤفكون » تذييل قصد به بيان ما جبلوا عليه من كذب .

ويؤفكون من الإفك بمعنى الكذب ، يقال : أفك الرجل ، إذا صرفه عن الخير والصدق . أى : مثل هذا الكذب الذى تفوهوا به فى الآخرة كانوا يفعلون فى الدنيا فهم فى الدارين لا ينفكون عن الكذب وعن اختلاق الباطل .

ثم حكى — سبحانه — ما قاله أهل العلم والإيمان فى الرد عليهم ، فقال : «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث» .

أى : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والمؤمنين الصادقين فى الرد على هؤلاء المجرمين : لقد لبثتم فى علم الله وقضائه بعد مفارقتكم الدنيا إلى يوم البعث ، أى : إلى الوقت الذى حدده — سبحانه — لبعثكم

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٣١

والفاء في قوله – تعالى – : « فهذا يوم البعث » هي الفصيحة ، أي : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه تشاهدونه بأعينكم ، ولا تستطيعون إنكاره الآن كما كنتم تنكرونه في الدنيا .

فالجملة الكريمة ، المقصود بها توبيخهم وتأنيبهم على إنكارهم ليوم الحساب.

وقوله « ولكنكم كنتم لا تعلمون » زيادة في تقريعهم ، أي : فهذا يوم البعث ماثل أمامكم ، ولكنكم كنتم في الدنيا لا تعلمون أنه حق وصدق ، بل كنتم بسبب كفركم وعنادكم تستخفون به ، وبمن يحدثكم عنه ، فاليوم تذوقون سوء عاقبة إنكاركم له ، واستهزائكم به .

ولذا قال – سبحانه – بعد ذلك : « فيومئذ » أي : فيوم أن تقوم الساعة ويقف الناس للحساب .

« لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم » أي لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يفيدهم علمهم بأن الساعة حق .

«ولا هم يستعتبون » أي : ولا هم يقبل منهم الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والعمل الصالح .

قال الآلوسي : والاستعتاب : طلب العتبى ، وهي الاسم من الاعتاب ، بمعنى إزالة العتب ، أي : لا يطلب منهم إزالة عتب الله – تعالى – وغضبه عليهم ، لأنهم قد حق عليهم العذاب . . »(١) .

ثم بين – سبحانه – موقفهم من القرآن الكريم ، وأنهم لو اتبعوا توجيهاته لنجوا من العذاب المهين ، فقال – تعالى – : « ولقد ضربنا

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢١ ص ٦١

الناس فى هذا القرآن من كل مثل ... .

أى : « وبالله لقد ضربنا للناس فى هذا القرآن العظيم ، وكل مثل حكيم ، من شأنه أن يهدى القلوب إلى الحق ، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها .

« ولئن جئتهم بآية » أى ولئن جئت — أيها الرسول — هؤلاء المشركين بآية بينة تدل على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

« ليقولن » على سبيل التطاول والتبجح « إن أنتم إلا مبطلون » أى : ما أنتم إلا متبعون للباطل أيها المؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول (ﷺ)

ثم يعقب — سبحانه — على هذا التطاول والغرور بقوله : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون » ، والطبع : الختم على الشىء حتى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه .

أى : مثل هذا الطبع العجيب ، يطبع الله — تعالى — على قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون ، ولا يعملون على إزالة جهلهم ، لتوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء ، وهذا أسوأ أنواع الجهل ؛ لأنه جهل مركب ، إذ صاحبه يجهل أنه جاهل . فهو كما قال الشاعر :

قال حمار الحكيم توما لو أنصفونى لكنت أركب
لأننى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة ، بأمر النبى (ﷺ) بالصبر على هؤلاء الجاهلين ، فقال : « فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

أى : إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين ، فاصبر

على أذاهم ، وعلى جهالاتهم ، فإن وعد الله - تعالى - بنصرك عليهم حق لاشك فى ذلك .

« ولا يستخفنك » أى : ولا يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون بصحة ما تتلو عليهم من آيات ، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير .

وهكذا ختمت السورة الكريمة بالوعد بالنصر ، كما افتتحت بالوعد به ، للمؤمنين الصادقين « وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وبعد : فهذه هى سورة الروم ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة : مدينة نصر كتبه الراجى عفو ربه

السبت : ٢٣ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ محمد سيد طنطاوى

١٤ من مارس سنة ١٩٨٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمه	٧٥
١	ألم . .	٨٢
٨	أو لم يتفكروا فى أنفسهم . .	٨٨
١١	الله يبدأ الخلق ثم يعيده . .	٨٦
١٧	فسبحان الله حين تمسون . .	٩٤
٢٨	ضرب لكم مثلا . .	٩٨
٢٣	وإذا مس الناس ضر . .	١٠٤
٣٨	فآت ذا القربى حقه . .	١١٥
٤١	ظهر الفساد فى البر والبحر . .	١١٩
٤٦	ومن آياته أن يرسل . .	١١٥
٥٤	الله الذى خلقكم من ضعف . .	١٣١

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة لقمان

الدكتور
محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

١ — سورة لقمان هى السورة الحادية والثلاثون فى ترتيب المصحف، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة السادسة والخمسون من بين السور المكية، وكان نزولها بعد سورة الصافات(١) :

وعدة آياتها : أربع وثلاثون آية . وقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره أنها مكية ، دون أن يستثنى شيئا منها .

وقال الآلوسى ما ملخصه : أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة . . وفى رواية عنه: أنها مكية إلا ثلاث آيات تبدأ بقوله ـ تعالى ـ: « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام »(٢)

٢ — وتبدأ السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم، وعلى المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون .

ثم تنتقل إلى الحديث عن جانب من صفات المشركين، الذين يستهزئون بآيات الله ـ تعالى ـ ، ويعرضون عنها ، « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ، فبشره بعذاب أليم » .

ثم ساقت أدلة متعددة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، قال ـ تعالى ـ « خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين » .

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ مبحث المكى والمدنى .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٦٤

٣ — ثم قص علينا ـ سبحانه ـ تلك الوصايا الحكيمة ، التى أوصى بها لقمان ابنه ، والتى اشتملت على ما يهدى إلى العقيدة السليمة ، وإلى الأخلاق الكريمة ، وإلى مراقبة الخالق — عز وجل — وإلى أداء العبادات التى كلفنا — سبحانه — بها .

ومن هذه الوصايا قوله — سبحانه — : «يابنى أقم الصلاة، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» .

٤ — ثم بين — سبحانه — ألوانا من نعمه على عباده ، منها ما يتعلق بخلق السموات ، ومنها ما يتعلق بخلق الأرض ، كما بين ـ عز وجل ـ أن علمه محيط بكل شىء ، وأنه لا نهاية له . . .

قال ـ تعالى ـ : «ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير» .

٥ — ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بدعوة الناس جميعا إلى تقواه ـ عز وجل ، وإلى بيان الأمور الخمسة التى لا يعلمها إلا هو ـ سبحانه ـ فقال : «يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت، إن الله عليم خبير» .

٦ — هذا ، والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يراها قد خاطبت النفس البشرية ، بما من شأنه أن يسعدها ويحييها حياة طيبة .

إنها قد بينت أوصاف المؤمنين الصادقين ، وأوصاف أعدائهم : وبينت

عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، ووضحت تلك الوصايا الحكيمة التى أوصى بها لقمان ابنه وأحب الناس إليه ، وساقت أنواعا من النعم التى أنعم بها — سبحانه — على عباده ، وبينت أن هناك أمورا لا يعلمها إلا الله — تعالى — وحده .

وقد ساقت السورة ما ساقت من هدايات ، بأسلوب بليغ مؤثر ، يرضى العواطف ، ويهدى العقول . .

نسأل الله — تعالى — أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

٣٠ من رجب ١٤٠٥ هـ — ٢٠ / ٤ / ١٩٨٦ م كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة لقمان من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى . .

وقد فصلنا القول فى معانيها ،عند تفسير نا لسور : البقرة ، وآل عمران، وغيرهما .

وقلنا فى نهاية سردنا لأقوال العلماء فى ذلك :« ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ،هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ،فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة ،مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل . .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : « تلك آيات الكتاب الحكيم» يعود إلى آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم على الصحيح .لأنه هو المتحدث عنه.

قال الآلوسى : وأما حمله على الكتب التى خلت قبل القرآن . . فهو غاية البعد »(١) والحكيم - بزنة فعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع تقول: حكمت الفرس ، إذا وضعت الحكمة فى فمها لمنعها من الجموح والشرود .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٥٨

والمقصود ، أن هذا القرآن ممتنع أنّ يتطرق إليه الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : وفي وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه منها أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة ، فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر ، ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم، بدليل قوله - تعالى - : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم . . » أي المبرأ من الكذب والتناقض »(١) .

والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هي آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب ، المحفوظ من كل تحريف أو تبديل ، الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت كلها لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - بنزول القرآن عليه ، كما في قوله - تعالى - : « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا » ، ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

وقوله « هدى ورحمة » منصوبان على الحالية من « آيات » .

أي : هذا الكتاب أنزلناه عليك يا محمد آياته ؛ ليكون هداية ورحمة للمحسنين في أقوالهم وفي أفعالهم ، وفي كل أحوالهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المحسنين ، بصفات كريمة فقال : « الذين يقيمون الصلاة » أي : يؤدونها في أوقاتها المحددة لها ، مستوفية لواجباتها ، وسننها ، وآدابها وخشوعها ، فإن الصلاة التامة هي تلك التي يصحبها الإخلاص ، والخشوع ، والأداء الصحيح المطابق لما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ١٧ ص ٥٠ .

« ويؤتون الزكاة ، أى : ويعطون الزكاة التى أوجبها الله — تعالى — فى أموالهم لمستحقيها ، « وهم بالآخرة هم يوقنون » ، والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الدنيا .

وقوله « يوقنون » من الإيقان ، وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع بحيث لا يطرأ عليه شك ، ولا تحوم حوله شبهة . .

أى : أن من صفات هؤلاء المحسنين ، أنهم يؤدون الصلاة بخشوع وإخلاص ، ويقدمون زكاة أموالهم لمستحقيها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، يوقنون إيقانا قطعيا ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .

وفى إيراد « هم » قبل لفظ الآخرة ، وقبل لفظ يوقنون : تعريض بغيرهم ، ممن كان اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة أو غير بالغ مرتبة اليقين .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك الثمار الطيبة التى ترتبت على تلك الصفات الكريمة ، فقال — تعالى — : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

والمفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية . وأصله من الفلح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث ، واستعمل منه الفلاح فى الفوز ، كأن الفائز شق طريقه وفلحه ، للوصول إلى مبتغاه ، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت .

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة ، على هداية عظيمة من ربهم توصلهم إلى المطلوب ، وأولئك هم الفائزون بكل مرغوب .

والتنكير فى قوله « على هدى » للتعظيم ، وأتى بلفظ « على » للاشارة إلى التمكين والرسوخ ، ووصفه بأنه « من ربهم » لأنه — سبحانه — هو الذى وفقهم إليه ، ويسر لهم أسبابه .

ثم بين – سبحانه – حال طائفة أخرى من الناس ، كانوا على النقيض من من سابقيهم فقال :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات أشهرها. أنهما نزلتا فى النضر بن الحارث . اشترى قينة - أى مغنية - ، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول لها : أطعميه وأسقيه وغنيه ، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه »(١) .

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٧٢

و « لهو الحديث » : باطلة ، ويطلق على كل كلام يلهي القلب ، ويشغله عن طاعة الله – تعالى – ، كالغناء ، والملاهي ، ومايشبه ذلك مما يصد عن ذكر الله – تعالى –

وقد فسره كثير من العلماء بالغناء والأفضل تفسيره بكل حديث لايثمر خيرا .

و « من » في قوله « ومن الناس » للتبعيض . أي : ومن الناس من يترك القول الذي ينفعه ، ويشترى الأحاديث الباطلة ، والخرافات الفاسدة .

قال القرطبي ما ملخصه : هذه إحدى الآيات التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه .

ولا يختلف في تحريم الغناء الذي يحرك النفوس ، ويبعثها على الغزل والمجون . . . .

فأما ما سلم من ذلك ، فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق .. »(١)

وقوله : « ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا . . . » تعليل لاشتراء لهو الحديث . والمراد بسبيل الله – تعالى – : دينه وطريقه الذي اختاره لعباده .

وقد قرأ الجمهور : « ليضل » – بضم الياء – أي : يشترى لهو الحديث ليضل غيره عن صراط الله المستقيم ، حالة كونه غير عالم بسوء عاقبة مايفعله ، ولكي يتخذ آيات الله – تعالى – مادة لسخريته واستهزائه .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٥٤ وراجع تفسير الآلوسي ج ٢١ ص ٦٧ وما بعدها .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ليضل » — بفتح الياء — فيكون المعنى : يشترى لهو الحديث ليزداد رسوخاً فى ضلاله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : القراءة بالضم بينة . لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو ، أن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن ، ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح ؟

قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ، ولا يصدع عنه ، ويزيد فيه ويمد ، فإن المخذول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد الناس عنه . والثانى : أن يوضع ليضل موضع ليضل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لامحالة ، فدل بالرديف على المردوف . . »(١) .

وقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » بيان لسوء عاقبة من يؤثر الضلالة على الهداية .

أى : أولئك الذين يشترون لهو الحديث ، ليصرفوا الناس عن دين الله — تعالى — ، وليستهزئوا بآياته ، لهم عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل الاحتقار والهوان .

ثم فصل — سبحانه — حال هذا الفريق الشقى فقال : « وإذا تتلى عليه » أى : على النضر وأمثاله « آياتنا » الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق نبينا — صلى الله عليه وسلم — .

« ولى مستكبرا » أى : أعرض عنها بغرور واستعلاء .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٩١

« كأن لم يسمعها » أى : كأن حاله فى استكباره عن سماع الآيات ، كحال الذى لم يسمعها إطلاقا .

« كأن فى أذنيه وقرا » أى : كأن فى أذنيه صمما وثقلا ومرضا يحول بينه وبين السماع .

والجملتان الكريمتان حال من قوله « مستكبرا » ، والمقصود بهما توبيخ هذا الشقى وأمثاله ، وذمهم ذما موجعا لإعراضهم عن الحق .

وقوله ــ تعالى ــ : « فبشره بعذاب أليم » تهكم به ، واستخفاف بتصرفاته .

أى : فبشر هذا الشقى الذى اشترى لهو الحديث ، وأعرض عن آياتنا بالعذاب الأليم ، الذى يناسب غروره واستكباره .

ثم أكدت السورة الجزاء الحسن الذى أعده الله ــ تعالى ــ للمؤمنين ، وذكرت جانبا من مظاهر قدرته ــ سبحانه ــ ، ورحمته بعباده ، فقال ــ تعالى ــ :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم

أى : إن الذين آمنوا بالله ــ تعالى ــ إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات ، « لهم » فى مقابلة ذلك « جنات النعيم » أى : لهم جنات عالية يتنعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

« خالدين فيها » خلودا أبديا « وعد الله حقا » أى : هم خالدون فى تلك الجنات خلودا أبديا ، فقد وعد الله وعدا حقا بذلك ، ووعده حق وصدق ، ولن يخلفه ـ سبحانه ـ تفضلا منه وكرما .

قال الجمل . وقوله « وعد » مصدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله « لهم جنات النعيم » فى معنى وعدهم الله ذلك . وقوله « حقا » مصدر مؤكد لغيره . أى : لمضمون تلك الجملة الأولى . وعاملهما مختلف ، فتقدير الأولى : وعد الله ذلك وعدا . وتقدير الثانية ، وحقه حقا »(١) .

وقوله - تعالى - : « وهو العزيز الحكيم » أى : وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب . الحكيم فى كل أفعاله وتصرفاته .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته وعزته وحكمته فقال : « خلق السموات بغير عمد ترونها . . . » .

والعمد : جمع عماد . وهو ما تقام عليه القبة أو البيت . وجملة « ترونها » فى محل نصب حال من السموات .

أى هو — سبحانه — وحده ، الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى ضخامتها ، بغير مستند يسندها . وبغير أعمدة تعتمد عليها . وأنتم ترون ذلك بأعينكم بدون لبس أو خفاء . ولا شك أن خلقها على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقا مدبرا قادرا حكيما ، هو المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » بيان لنعمة ثانية مما أنعم به — سبحانه — على عباده .

والرواسى : جمع راسية . والمراد بها الجبال الشوامخ الثابتة .

أى : ومن رحمته بكم ، وفضله عليكم ، أن ألقى - سبحانه - فى الأرض

---

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٠١ .

جبالا ثوابت كراهة أن تميد وتضطرب بكم ، وأنتم عليها .

« وبث فيها من كل دابة » أى : وأوجد ونشر فى الأرض التى تعيشون فوقها ، من كل دابة من الدواب التى لا غنى لكم عنها . والتى فيها منفعتكم ومصلحتكم .

والبث : معناه : النشر والتفريق . يقال : بث القائد خيله إذا نشرها وفرقها .

ثم بين — سبحانه — نعمة ثالثة فقال : « وأنزلنا » أى : بقدرتنا « من السماء ماء » أى : ماء كثيرا هو المطر . « فأنبتنا فيها » أى : فأنبتنا فى الأرض بسبب نزول المطر عليها . « من كل زوج » أى : صنف « كريم » أى حسن جميل كثير المنافع .

والاشارة فى قوله : « هذا خلق الله . . » تعود إلى ماذكره - سبحانه - من مخلوقاته قبل ذلك . والخلق بمعنى المخلوق .

أى : هذا الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض والجبال . . . هو من مخلوقنا وحدنا ، دون أن يشاركنا فيما خلقناه مشارك .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » واقعة فى جواب شرط مقدر ، أى : إذا علمتم ذلك فأرونى وأخبرونى ، ماذا خلق الذين اتخذتموهم آلهة من دونه - سبحانه - إنهم لم يخلقوا شيئا ما ، بل هم مخلوقون لله — تعالى —

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تحدى المشركين ، وإثبات أنهم فى عبادتهم لغير الله ، قد تجاوزوا كل حد فى الجهالة والضلالة .

وقوله - سبحانه - : « بل الظالمون في ضلال مبين » اضراب عن تبكيتهم وتوبيخهم ، إلى تسجيل الضلال الواضح عليهم .

أي : بل الظالمون في ضلال بين واضح ، لأنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، ويتركون عبادة الله - تعالى - الخلاق العليم .

ثم ساق - سبحانه - على لسان عبد صالح من عباده ، جملة من الوصايا الحكيمة ، لتكون عظة وعبرة للناس ، فقال تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ
يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى
وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ
مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾
يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ
لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : اختلف السلف في لقمان ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة ؟ والأكثرون على أنه لم يكن نبياً .

وعن ابن عباس وغيره : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا . . .

قال له مولاه : أذبح لنا شاة وجئني بأخبث ما فيها ؟ فذبحها وجاءه بلسانها وقلبها . ثم قال له مرة ثانيه : اذبح لنا شاة وجئني بأحسن ما فيها ؟ فذبحها وجاءه ـ أيضاً ـ بقلبها ولسانها ، فقال له مولاه ما هذا ؟ فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، وليس من شيء أخبث منهما إذا خبثا .

وقال له رجل : ألست عبد فلان فما الذي بلغ بك ما أرى من الحكمة ؟ فقال لقمان : قدر الله وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وترك

حالا يعنينى »(١) .

ومن أقواله لابنه : يابنى اتخذ تقوى الله لك تجارة ، يأتك الربح من غير بضاعة .

يابنى ، لا تكن أعجز من هذا الديك الذى يصوت بالأسحار ، وأنت نائم على فراشك .

يا بنى ، اعتزل الشر كيما يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق .

يابنى ، عليك بمجالس العلماء ، وبسماع كلام الحكماء ، فإن الله - تعالى - يحيى القلب الميت بنور الحكمة . .

يابنى ، إنك منذ نزلت الدنيا استدبرتها ، واستقبلت الآخرة ، ودار أنت إليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترتحل . . »(٢) .

وقال الآلوسى ماملخصه : ولقمان : اسم أعجمى لا عربى وهو ابن باعوراء . قيل : كان فى زمان داود - عليه السلام - ، وقيل : كان زمانه بين عيسى وبين محمد - عليهما الصلاة والسلام - .

ثم قال الآلوسى : وإنى أختار أنه كان رجلا صالحا حكيما ، ولم يكن نبيا »(٣) .

وقوله - سبحانه - : ولقد آتينا لقمان الحكمة . . » كلام مستأنف مسوق

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٢٦

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٠٢ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٨٢ .

لإبطال الإشراك بالله - تعالى - عن طريق النقل، بعد بيان إبطاله عن طريق العقل، فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : «هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه . . . . » .

والحكمة : اكتساب العلم النافع والعمل به . أوهى : العقل والفهم. أوهى الإصابة فى القول والعمل . .

والمعنى : والله لقد أعطينا - بفضلنا وإحساننا - عبدنا لقمان العلم النافع والعمل به .

وقوله - سبحانه - «أن اشكر لله» بيان لما يقتضيه إعطاء الحكمة . أى : آتيناه الحكمة وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من نعم لكى يزيدك منها .

قال الشوكانى : قوله : «أن اشكر لله» أن هى المفسرة، لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول . وقيل التقدير : قلنا له أن اشكر لى .. وقيل : بأن اشكر لى فشكر، فكان حكيما بشكره .

والشكر لله : «الثناء عليه فى مقابلة النعمة - واستعمالها فيما خلقت له - وطاعته فيما أمر به» (١) .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الشكر وسوء عاقبة الجحود فقال : «ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد» .

أى : ومن يشكر الله - تعالى - على نعمه، فإن نفع شكره إنما يعود إليه ومن جحد نعم الله - تعالى - واستحب الكفر على الإيمان . فالله - تعالى - غنى

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٢٣٧ .

عنه وعن غيره ، حقيق بالحمد من سائر خلقه لإنعامه عليهم بالنعم التي لا تعد ولا تحصى : فحميد بمعنى محمود .

فالجملة الكريمة المقصود بها ، بيان غنى الله - تعالى - عن خلقه ، وعدم انتفاعه بطاعتهم ، لأن منفعتها راجعة إليهم ، وعدم تضرره بمعصيتهم ، وإنما ضرر ذلك يعود عليهم .

وعبر - سبحانه - في جانب الشكر بالفعل المضارع ، للاشارة إلى أن من شأن الشاكرين أنهم دائما على تذكر لنعم الله - تعالى - ، وإذا ما غفلوا عن ذلك لفترة من الوقت ، عادوا إلى طاعته - سبحانه - وشكره .

وعبر في جانب الكفر بالفعل الماضي ، للإشعار بأنه لا يصح ولا ينبغي من أي عاقل، بل كل عاقل عليه أن يهجر ذلك هجرا تاما ، وأن يجعله في خبر كان .

وجواب الشرط محذوف ، وقد قام مقامه قوله - تعالى - : «فإن الله غني حميد» . والتقدير : ومن كفر فضرر كفره راجع إليه ، لأن الله - تعالى - غني حميد .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لقمان لابنه على سبيل النصيحة والإرشاد فقال - تعالى - : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يابني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم» .

وقوله «يعظه» من الوعظ ، وهو الزجر المقترن بالتخويف . وقيل : هو التذكير بوجوه الخير بأسلوب يرق له القلب .

قالوا : واسم ابنه «ثاران» أو «ماثان» . . أي : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتنتفع ، وقت أن قال لقمان لابنه وهو يعظه ، ويرشده إلى وجوه الخير بألطف عبارة : يابني «لا تشرك بالله» - تعالى - لا في عبادتك، ولا في قولك، ولا في عملك ، بل أخلص كل ذلك لخالقك - عز وجل - .

وفى ندائه بلفظ « يابنى » إشفاق عليه، ومحبة له، فالمراد بالتصغير إظهار الحنو عليه، والحرص على منفعته.

قيل: وكان ابنه كافرا فمازال يعظه حتى أسلم. وقيل: بل كان مسلما، والنهى عن الشرك المقصود به « المداومة » على ما هو عليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين.

وجملة « إن الشرك لظلم عظيم » تعليل للنهى. أى: يابنى حذار أن تشرك بالله فى قولك أو فعلك، إن الشرك بالله - تعالى - لظلم عظيم، لأنه وضع للأمور فى غير موضعها الصحيح، وتسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق.

وقوله - تعالى -: « ووصينا الإنسان بوالديه.. » كلام مستأنف، جىء به على سبيل الاعتراض فى أثناء وصية لقمان لابنه، لبيان سمو منزلة الوالدين، ولأن القرآن كثيرا ما يقرن بين الأمر بوحدانية الله - تعالى -، والأمر بالإحسان إلى الوالدين.

ومن ذلك قوله - تعالى -: « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا... »(١).

وقوله - عز وجل -: « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا... »(٢).

أى: أمرنا كل إنسان أن يكون بارا بأبويه، وأن يحسن إليهما، وأن يطيع أمرهما فى المعروف.

ثم بين - سبحانه - ما بذلته الأم من جهد يوجب الإحسان إليها فقال: « حملته أمه وهنا على وهن » أى: حملته أمه فى بدنها وهى تزداد فى كل يوم

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٣

ضعفا على ضعف، بسبب زيادة وزنه، وكبر حجمه، وتعرضها لألوان من التعب خلال حمله ووضعه.

والوهن: الضعف. يقال: وهن فلان يهن وهنا. إذا ضعف وافظ «وهنا» حال من أمه بتقدير مضاف. أى: حملته أمه ذات وهن، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال. أى: يهن وهنا. وقوله: «على وهن» متعلق بمحذوف صفة للمصدر. أى: وهنا كائنا على وهن.

وقوله «وفصاله فى عامين» بيان لمدة إرضاعه. والفصال: الفطام عن الرضاع.

أى: فطام المولود عن الرضاعة يتم بانقضاء عامين من ولادته، كما قال — تعالى —: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة...» (١).

وهاتان الجملتان «حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين» جاءتا بعد الوصية بالوالدين عموما. تأكيدا لحق الأم. وبيانا لما تبذله من جهد شاق فى سبيل أولادها، تستحق، من أجله كل رعاية وتكريم وإحسان

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: فقوله: «حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين»، كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟

قلت: لما وصى بالوالدين: ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا وتذكيرا بحقها العظيم مفردا، ومن ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لمن قال له: من أبر؟ قال أمك ثم أمك ثم أمك، ثم قال بعد ذلك، ثم أباك» (٢).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٣
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٩٤

وقوله - سبحانه - : « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » بيان لما تستلزمه الوصية بالوالدين أى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا، وقلنا له: اشكر لخالقك فضله عليك ، بأن تخلص له العبادة والطاعة ، واشكر لوالديك ما تحملاه من أجلك من تعب ، بأن تحسن إليهما، واعلم أن مصيرك إلى خالقك - عز وجل - وسيحاسبك على أعمالك ، وسيجازيك عليها بما تستحقه من ثواب أو عقاب.

ثم بين - سبحانه - حدود الطاعة للوالدين فقال : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما . . . »

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : « ووصينا . » بإضمار القول . أى: ووصينا الإنسان بوالديه . وقلنا له : « وإن جاهداك » أى : وإن حملاك « على أن تشرك بى » فى العبادة أو الطاعة ، « ما ليس لك به علم فلا تطعهما » فى ذلك ، فإنه لا طاعه لمخلوق فى معصية الخالق .

وجملة « ما ليس لك به علم » لبيان الواقع ، فلا مفهوم لها ، إذ ليس هناك من إله يعلم سوى الله - عز وجل - .

ثم أمر - سبحانه - بمصاحبتهما بالمعروف حتى مع كفرهما فقال : « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » .

أى : إن حملاك على الشرك . فلا تطعهما ، ومع ذلك فصاحبهما فى الأمور الدنيوية التى لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة ، يرتضيها الشرع ، وتقتضيها مكارم الأخلاق .

وقوله « معروفا » صفة لمصدر محذوف . أى: صحابا معروفا. أو منصوب بنزع الخافض . أى : المعروف

ثم أرشد - سبحانه - إلى وجوب إتباع أهل الحق فقال : « واتبع سبيل من أناب إلى . . . »

أى : واتبع - أيها العاقل - طريق الصالحين من عبادى ، الذين رجعوا إلى بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص .

« ثم إلى مرجعكم » جميعاً يوم القيامة - أيها الناس - « فأنبئكم بما كنتم تعملون » فى الدنيا ، وأجازى كل إنسان على حسب عمله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

قال القرطبى ما ملخصه : وهاتان الآيتان نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص لما أسلم ، وأن أمه حلفت أن لا تأكل طعاما حتى تموت .. فيهما دليل على صلة الأبوين الكافرين ، بما أمكن من المال متى كانا فقيرين .. وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق ، للنبى - صلى الله عليه وسلم - وقد قدمت عليها خالتها وقيل : أمها من الرضاعة : يارسول الله ، إن أمى قدمت على وهى راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم . وراغبة قيل معناه : عن الإسلام ، أو راغبة فى الصلة (١)

ثم ذكر - سبحانه - بقية الوصايا التى أوصى بها لقمان إبنه فقال : « يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، يأت بها الله . . »

الضمير فى قوله : « إنها » يعود إلى الفعلة التى يفعلها من خير أو شر . و « تك » مجزوم بسكون النون المحذوفة ، وهو فعل الشرط ، والجواب « يأت بها الله . . . » والمثقال : أقل ما يوزن به الشىء . والخردل : فى غاية الصغر والدقة .

والمعنى : يا بنى إن ما تفعله من حسنة أو سيئة ، سواء أكان فى نهاية القلة والصغر ، كمثقال حبة من خردل ، وسواء أكان هذا الشىء القليل مخبوءا فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٦٥

صخرة من الصخور الملقاة فى فجاج الأرض ، أم كائنا فى السموات أم فى الأرض ، فإن الله - تعالى - يعلمه ويحضره ويجازى عليه « إن الله » - تعالى - لطيف خبير » أى : محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، عظيمها وصغيرها .

فالمقصود من الآية الكريمة ، غرس الهيبة والخشية والمراقبة لله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون ، مهما دق وقل وخفى فى أعماق الأرض أو السماء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين »(١) .

ثم أمره بالمحافظة على الصلاة وبالأمر بالمعروف ، وبالنهى عن المنكر وبالصبر على الأذى ، فقال : يا بنى أقم الصلاة » أى : واظب على أدائها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .

« وأمر بالمعروف » أى بكل ما حض الشرع على قوله أو فعله « وانه عن المنكر » أى : عن كل ما نهى الشرع عن قوم أو فعله .

« واصبر على ما أصابك » من الأذى ، فإن الحياة مليئة بالشدائد والمحن والراحة إنما هى فى الجنة فقط .

وعزم الأمور : أعاليها ومكارمها . أو المراد بها ما أوجبه الله - تعالى - على الإنسان .

---

(١) سورة الأنبياء . الآية ٤٧ .

قال صاحب الكشاف : « إن ذلك ، مما عزمه الله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب وإلزام . . ومنه الحديث : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، ومنه عزمات الملوك ، وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده ، عزمت عليك إلا فعلت كذا ، فإذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ، ولا مندوحة فى تركه .

وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها فى سائر الأمم ، وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها »(١) .

ثم نهاه عن التكبر والغرور والتعالى على الناس فقال : « ولا تصعر خدك للناس . . »

والصعر فى الأصل : مرض يصيب البعير فيجعله معوج العنق، والمراد به هنا ، التكبر وإحتقار الناس ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

أى : ولا تمل صفحة وجهك عن الناس ، ولا تتعالى عليهم كما يفعل المتكبرون والمغرورون ، بل كن هينا لينا متواضعاً ، كما هو شأن العقلاء . .

« ولا تمش فى الأرض مرحا » أى : ولا تمش فى الأرض مشية المختالين المعجبين بأنفسهم . و « مرحا » مصدر وقع موقع الحال على سبيل المبالغة ، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف أى : تمرح مرحا . والجملة فى موضع الحال . أو مفعول لأجله . أى : من أجل المرح .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٦

وقوله : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » تعليل للنهى . والمختال : المتكبر الذى يختال فى مشيته ، ومنه قولهم : فلان يمشى الخيلاء : أى يمشى مشية المغرور المعجب بنفسه .

والفخور : المتباهى على الناس بماله أوجاهه أو منصبه . . يقال فخر فلان - كمنع - فهو فاخر وفخور ، إذا تفاخر بما عنده على الناس، على سبيل التطاول عليهم ، والتنقيص من شأنهم .

أى : إن الله - تعالى - لا يحب من كان متكبرا على الناس ، متفاخرا بماله أو جاهه .

ثم أمر بالقصد والإعتدال فى كل أموره فقال : « واقصد فى مشيك » أى وكن معتدلا فى مشيك ، بحيث لا تبطىء ولا تسرع . من القصد وهو التوسط فى الأمور .

« واغضض من صوتك » أى : واخفض من صوتك فلا ترفعه إلا إذا إستدعى الأمر رفعه ، فإن غض الصوت عند المحادثة فيه أدب وثقة بالنفس، واطمئنان إلى صدق الحديث واستقامته

وكان أهل الجاهلية يتفاخرون بجهارة الصوت وإرتفاعه ، فنهى المؤمنون عن ذلك ، ومدح - سبحانه - الذين يخفضون أصواتهم فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أولئك الذين إمتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم »

وقوله - تعالى - : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » تعليل للأمر بخفض الصوت ، وللنهى عن رفعه بدون موجب .

أى : إن أقبح الأصوات وأبشعها لهو لصوت الحمير ، فالجملة الكريمة حض على غض الصوت بأبلغ وجه وآكده ، حيث شبه - سبحانه - الرافعين

لأصواتهم فى غير حاجه إلى ذلك ، بأصوات الحمير التى هى مثار السخرية مع النفور منها .

وهكذا نجد أن لقمان قد أوصى إبنه بجملة من الوصايا السامية النافعة ، فقد أمره - أولا - بإخلاص العبادة لله - تعالى - ثم غرس فى قلبه الخوف من الله - عز وجل - ، ثم حض على إقامة الصلاة ، وعلى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، وعلى الصبر على الأذى ، ثم نهاه عن الغرور والتكبر والافتخار وعن رفع الصوت بدون مقتض لذلك .

وبتنفيذ هذه الوصايا ، يسعد الأفراد ، وترقى المجتمعات .

* * *

ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على الناس، ودعا المنحرفين عن الحق إلى ترك المجادلة بالباطل ، وإلى مخالفة الشيطان ، فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض . . . » لأولئك المشركين الذين استحبوا العمى على الهدى ،

واشتروا لهو الحديث ليضلوا غيرهم عن طريق الحق .

وسخر : من التسخير ، بمعنى التذليل والتكليف ، يقال : سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة . والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الإنتفاع به .

والاستفهام لتقرير الواقع وتأكيده . أى : لقد رأيتم — أيها الناس — وشاهدتم أن الله - تعالى - سخر لمنفعتكم ومصلحتكم ما فى السموات من شمس وقمر ونجوم . . . وما فى الأرض من زرع وأشجار وحيوانات وجبال . . . وما دام الأمر كذلك فاشكروا الله - تعالى - على هذا التسخير ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله — تعالى — : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » معطوف على ما قبله .

وقوله : « وأسبغ » بمعنى أتم وأكمل عليكم نعمه يقال هذا ثوب سابغ إذا كان تاما وافيا .

ويقال : سبغت النعمة سبوغا - من باب قعد - إذا فاضت واتسعت .

وقوله : « نعمه » جمع نعمة : وهى ما ينتفع به الإنسان ويستلذه من الحلال .

والنعمة الظاهرة : هى النعمة المشاهدة المحسوسة كنعمة السمع والبصر وحسن الهيئة والمال ، والجاه ، وما يشبه ذلك مما يراه الإنسان ويشاهده .

والنعمة الباطنة : هى النعمة الخفية التى يجد الإنسان أثرها فى نفسه دون أن يراها . كنعمة الإيمان بالله - تعالى - وإسلام الوجه له - عز وجل - ، والاتجاه إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن رذائلها وسفسافها .

وفى تفسير النعم الظاهرة والباطنة أقوال أخرى ، نرى أن ما ذكرناه

أو جبهها وأجسمها(١) .

ثم بين - سبحانه - ما عليه بعض الناس من جدال بالباطل فقال : «ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير » .

وقوله : « يجادل » من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المخاصمة والمنازعة والمغالبة . مأخوذ من جدلت الحبل ، إذا أحكمت فتله ، فكان المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه .

والمراد من المجادلة فى الله : المجادلة فى ذاته وصفاته وتشريعاته . . .

وقوله « بغير علم » حال من الفاعل فى « يجادل »، وهى حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد .

أى : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون فى ذات الله ، وفى صفاته ، وفى وحيه ، وفى تشريعاته ... بغير مستند من علم عقلى أو نقلى ، وبغير « هدى » يهديه ويرشده إلى الحق، وبغير « كتاب منير » أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد.

فأنت ترى ،أن الآية الكريمة قد جردت هذا المجادل ، من أى مستند يستند إليه فى جداله ، سواء أكان هذا المستند عقليا أم نقليا ، بل أثبتت له الجهالة من كل الجهات .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المجادلين بالباطل ، لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إلى رذائلهم السابقة رذائل أخرى منها العناد والتقليد الأعمى ،فقال « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . . » .

أى : وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزله الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن كريم ، ومن وحى حكيم .

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٩٣

«قالوا» على سبيل العناد والتقليد الأعمى «بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» من عبادة الأصنام والأوثان ، والسير على طريقتهم التى كانوا يسيرون عليها .

وقوله — سبحانه — : أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» رد عليهم ، وبيان لبطلان الاعتماد فى العقيدة على مجرد تقليد الآباء .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للحال . أى : أيتبعون ما كان عليه آباؤهم ، والحال أن هذا الاتباع هو من وحى الشيطان الذين يقودهم إلى ما يؤدى إلى عذاب السعير .

قال الآلوسى : وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر . وأما اتباع الغير فى الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق ، فاتباع فى الحقيقة لما أنزل — تعالى — وليس من التقليد المذموم فى شىء ، وقد قال - سبحانه - : «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» (١) .

ثم فصل — سبحانه — بعد ذلك حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار الذين لا يحسنون التدبر فى أنفسهم ، أو فيما حولهم ، فقال — تعالى — :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٤١ .

وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ
قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

وقوله — تعالى — « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن » أى : ومن يتجه إلى الله — تعالى — ويذعن لأمره ، ويخلص له العبادة ، وهو محسن فى أقواله وأعماله .

من يفعل ذلك ، فقد استمسك بالعروة الوثقى . والعروة فى أصل معناها : تطلق على ما يتعلق بالشىء من عراه ، أى من الجهة التى يجب تعليقه منها ، وتجمع على عرا .

والعروة من الدلو مقبضه ، ومن الثوب : مدخل زره .

والوثقى : تأنيث الأوثق ، وهو الشىء المحكم الموثق . يقال : وثق — بالضم — وثاقه ، أى : قوى وثبت فهو وثيق ، أى : ثابت محكم .

والمعنى: ومن يستسلم لأمر الله ـ تعالى ـ ، ويأتى بالأقوال والأفعال على وجه حسن ، فقد ثبت أمره ، واستقام على الطريقة المثلى ، وأمسك من الدين بأقوى سبب ، وأحكم رباط .

فقد شبه ـ سبحانه ـ المتوكل عليه فى جميع أموره ، المحسن فى أفعاله بمن ترقى فى حبل شاهق ، وتدلى منه ، فاستمسك بأوثق عروة ، من حبل متين مأمون انقطاعه .

وخص ـ سبحانه ـ الوجه بالذكر ، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة ، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم الأعضاء ، فغيره أكثر خضوعاً .

وقوله : « وإلى الله عاقبة الأمور » أى : وإلى الله ـ تعالى ـ وحده تصير الأمور ، وترجع إليه ، وتخضع لحكمه وإرادته .

وقوله ـ تعالى ـ : « ومن كفر فلا يحزنك كفره . . » تسلية للرسول (ﷺ) ، عما أصابه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : ومن استمر ـ أيها الرسول ـ على كفره بعد أن بلغته رسالتنا ودعوتنا ، فلا يحزنك بعد ذلك بقاؤه على كفره وضلاله ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب ، وإنك لاتهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء .

وقوله ـ سبحانه ـ : « إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا . . » بيان لسوء مصيرهم .

أى : إلينا وحدنا مرجع هؤلاء الكافرين ، فنخبرهم بما عملوه فى الدنيا من أعمال سيئة ، ونجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب .

« إن الله » — تعالى — « عليم » علماً تاماً « بذات الصدور » أى : بمكنونات الصدور وخفاياها .

« نمتعهم قليلا » فى هذه الحياة الدنيا . أى نمتعهم تمتيعا قليلا فى دنياهم، بأن نعطيهم الأموال والأولاد على سبيل الاستدراج .

« ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » أى نعطيهم فى حياتهم القصيرة ما يتمتعون به من مال وصحة . . ثم نلجئهم وندفعهم دفعاً يوم القيامة إلى عذاب مروع عظيم ، لضخامة ثقله ، وشدة وقعه .

والتعبير بقوله : « نمتعهم قليلا » يشعر بأن ما يتمتعون به من مال وغيره فى هذه الحياة ، هو قليل فى ذاته ، زهيد فى قيمته ، بالنسبة لما ينتظرهم من عذاب شديد .

والمراد بالاضطرار : الإلجاء والقسر والإلزام ، أى : أنهم لا يستطيعون التفلت أو الانفكاك عن هذا العذاب الذى أعد لهم .

ووصف — سبحانه — العذاب بالغلظ ، لزيادة تهويله وشدته . فهو ثقيل عليهم ثقل الأجرام الضخمة التى تهوى على رأس الانسان ، فتشل حركته وتهلكه .

ثم بين — سبحانه — ما كان عليه هؤلاء الكافرون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال : « ولئن سألتهم » — أيها الرسول الكريم — « من خلق السموات والأرض » وأوجدهما على هذا النظام البديع .

« ليقولن » فى الجواب « الله » أى : الله — تعالى — هو الذى خلقهما وهو الذى أوجدهما .

« قل الحمد لله » أى : قل — أيها الرسول الكريم — الحمد لله - تعالى - وحده ، حيث اعترفتم بأن خالقهما هو الله ، وما دام الأمر كذلك ،

فكيف أشركتم معه فى العبادة غيره ؟ إن قولكم هذا الذى تؤيده الفطرة ، ليتنافى مع ما أنتم عليه من كفر وضلال .

وقوله — سبحانه — « بل أكثرهم لا يعلمون » إضراب عن أقوالهم إلى بيان واقعهم ، أى : بل أكثرهم لا يعلمون الحقائق علماً سليماً ، وإنما هم يقولون بألسنتهم ، ما يتباين تبايناً تاماً مع أفعالهم . وهذا شأن الجاهلين ، الذين انطمست بصائرهم .

ثم بين — سبحانه — ما يدل على عظيم قدرته ، وشمول ملكه فقال : « لله ما فى السموات والأرض » .

أى : لله — تعالى — وحده ، ما فى السموات وما فى الأرض ، خلقاً وملكاً وتصرفاً .

« إن الله هو الغنى » عن كل ما سواه « الحميد » أى : المحمود من أهل الأرض والسماء ؛ لأنه هو الخالق لكل شىء ، والرازق لكل شىء .

* * *

ثم ساق — سبحانه — بعد ذلك ما يدل على شمول علمه ، ونفاذ قدرته ، فقال — سبحانه — :

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ
بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾
مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ
ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾
وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ
إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

قال ابن كثير : قال قتادة . قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال — تعالى — « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام . . . » .

وعن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا للنبى (ﷺ) : أرأيت قولك : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ؟ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال (ﷺ) : كلا عنيت . فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : إنها فى علم الله

قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم ، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام . . . »(١) .

و « لو » شرطية ، وجوابها « نفدت كلمات الله.. » و « من » في قوله « من شجرة » للبيان ، ، وفي الآية الكريمة كلام محذوف يدل عليه السياق .

والمعنى : ولو أن ما في الأرض من أشجار تحولت بغصونها وفروعها إلى أقلام ، ولو أن البحر - أيضا - تحول إلى مداد لتلك الأقلام ، وأمد هذا البحر بسبعة أبحر أخرى ، وكتبت بتلك الأقلام ، وبذلك المداد كلمات الله التي يحيط بها علمه — تعالى — . .

لنفدت الأقلام ، ولنفد ماء البحر ، لتناهي كل ذلك ، وما نفدت كلمات الله — تعالى — ولا معلوماته ، لعدم تناهيها .

« إن الله - تعالى - عزيز » لا يعجزه شيء ، ولا يغلبه غالب « حكيم » في كل أقواله وأفعاله .

فالآية الكريمة المقصود منها بيان أن علم الله - تعالى - لا نهاية له ، وأن مشيئته لا يقف أمامها شيء ، وكلماته لا أول لها ولا آخر .

وقال - سبحانه - « من شجرة » بالإفراد ، لأن المراد تفصيل الشجر واستقصاؤه شجرة فشجرة ، حتى لا تبقى واحدة من أنواع الأشجار إلا وتحولت إلى أقلام .

وجمع - سبحانه - الأقلام ، للتكثير ، أي : أقلام كثيرة يصعب عدها .

والمراد بالبحر : البحر المحيط بالأرض ، لأنه المتبادر من التعريف ، إذ هو الفرد الكامل .

وإنما ذكرت السبعة بعد ذلك على وجه المبالغة دون إرادة الحصر ، وإلا فلو اجتمعت عشرات البحار ما نفدت كلمات الله .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٢ .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام ، والبحر مداد ؟ قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله «يمده» لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها . جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا ، فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع .

فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله ؟

قلت : معناه أن كلماته لا تفى بكتابتها البحار فكيف بكلمه ؟(١)

وقال الآلوسى : والمراد بكلماته ـ تعالى ـ كلمات علمه ـ سبحانه ـ وحكمته . وقيل : المراد بها : مقدوراته وعجائب خلقه ، والتى إذا أراد ـ سبحانه ـ شيئا منها قال له : « كن فيكون »(٢) .

ثم أتبع ـ سبحانه ـ ذلك ببيان نفاذ قدرته فقال : «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ...» .

أى : ما خلقكم ـ أيها الناس ـ جميعا ، ولا بعثكم يوم القيامة ، إلا كخلق نفس واحدة أو بعثها ، لأن قدرته ـ عز وجل ـ يتساوى معها القليل والكثير ، والصغير والكبير ، قال ـ تعالى ـ « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

وقال ـ سبحانه ـ « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » .

« إن الله » ـ تعالى ـ « سميع » لكل شىء « عليم » بأحوال خلقه لا يخفى عليه شىء منهم .

* * *

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٠١

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٠٠

ثم ذكر - سبحانه - الناس بجانب من مظاهر قدرته ونعمه عليهم، لكي يخلصوا له العبادة والطاعة،

والاستفهام في قوله - سبحانه - : «ألم تر أن الله يولج الليل في النهار..» للتقرير. والخطاب لكل من يصلح له ليعتبر ويتعظ، ويخلص العبادة لله - تعالى - .

وقوله «يولج» من الإيلاج بمعنى الإدخال. يقال: ولج فلان منزله، إذا دخله..

ثم استعير لزيادة زمان النهار في الليل وعكسه، بحسب المطالع.

أي: لقد رأيت وشاهدت - أيها العاقل - أن الله - تعالى -، يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر، على حسب مشيئته وحكمته.

أنه - سبحانه - «سخر الشمس والقمر..» أي: ذللهما وجعلهما لمنفعة الناس ومصلحتهم، كما جعلهما يسيران هما والليل والنهار، بنظام بديع لا يتخلف

وقوله: «كل يجرى إلى أجل مسمى» أي: كل من الشمس والقمر يجريان في مدارهما بنظام ثابت محكم، إلى الوقت الذي حدده - سبحانه - لنهاية سيرهما، وهو يوم القيامة قال ابن كثير: قوله: «إلى أجل مسمى» قيل: إلى غاية محدودة.

وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح. ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر الذي في الصحيحين، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

يا أباذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها ، فيوشك أن يقال لها : « أرجعى من حيث جئت »(١) .

وقال الجمل : قوله : « إلى أجل مسمى » قاله هنا بلفظ « إلى » ، وفى سورتى فاطر والزمر ، بلفظ « لأجل » ، لأن ماهنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهى إليه الخلق ، وهما قوله : « ماخلقكم ولا بعثكم .. » الآية. وقوله « اتقوا ربكم واخشوا يوما .. » الآية ، فناسب هنا ذكر « إلى » الدالة على الانتهاء ، وما فى فاطر والزمر خالى عن ذلك ، إذ ما فى فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ، وما فى الزمر ذكر مع ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى « يجرى كل كما ذكر لبلوغ أجل مسمى »(٢) .

وجملة « وأن الله بما تعملون خبير » معطوفة على قوله : « أن الله يولج .. » أى : لقد علمت أن الله ـ تعالى ـ قد فعل ذلك ، وأنه ـ سبحانه ـ خبير ومطلع على كل عمل تعملونه ـ أيها الناس ـ دون أن يخفى عليه شىء منها .

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك بأن الله هو الحق . . . » يعود إلى ماتقدم ذكره من إيلاج الليل فى النهار ، وتسخير الشمس والقمر . وهو مبتدأ . وقوله « بأن الله هو الحق » خبره . والباء للسببية .

أى : ذلك الذى فعلناه سببه ، أن الله ـ تعالى ـ هو الإله الحق ، الذى لا إله سواه ، « وأن مايدعون من دونه » من آلهة أخرى هو « الباطل » الذى لا يصح أن يسمى بهذا الاسم ؛ لأنه مخلوق زائل متغير ، لا يضر ولا ينفع .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الناس بنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى فقال :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٢ (٢) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٠٩

« ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته . . »

أى : ولقد علمت - أيضا - وشاهدت - أيها العاقل - حال السفن، وهى تجرى فى البحر ، بمشيئة الله وقدرته ، وبلطفه ورحمته وإحسانه ، ليطلعكم على بعض آياته الدالة على باهر قدرته ، وسمو حكمته وسابغ نعمته .

« إن فى ذلك » الذى شاهدتموه وانتفعتم به من السفن وغيرها « لآيات » واضحات على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده « لكل صبار » أى : لكل إنسان كثير الصبر « شكور »

أى : كثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ورحمته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أحوال الناس عندما تحيط بهم المصائب وهم فى وسط البحر فقال : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » .

وقوله « غشيهم » من الغشاء بمعنى : الغطاء . فقال غشى الظلام المكان ، إذا حل به وأصل « الموج » الحركة والازدحام ، ومنه قولهم : ماج البحر إذا اضطرب وارتفع ماؤه . والظلل : جمع ظلة - كغرفة وغرف - ، وهى ما أظل غيره من سحاب أو جبل أو غيرهما .

أى : وإذا ما ركب الناس فى السفن ، وأحاطت بهم الأمواج من كل جانب ، وأوشكت أن تعلوهم وتغطيهم . . فى تلك الحالة لجأوا إلى الله - تعالى - وحده ، يدعونه بإخلاص وطاعة وتضرع ، أن ينجيهم مما هم فيه من بلاء . .

« فلما نجاهم » - سبحانه - بفضله وإحسانه ، وأوصلهم « إلى البر » انقسموا إلى قسمين، أما القسم الأول ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : فمنهم مقتصد »

أى : فنهم من هو مقتصد ، أى : متوسط فى عبادته وطاعته ، يعيش حياته بين الخوف والرجاء .

قال ابن كثير . قال ابن زيد . هو المتوسط فى العمل . ثم قال ابن كثير وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله - تعالى - : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، فالمقتصد ههنا هو المتوسط فى العمل ، ويحتمل أن يكون مراداً هنا — أيضاً — ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال ، والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً ، والحالة هذه » (١) .

وأما القسم الثانى فقد عبر عنه — سبحانه - بقوله : « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .

والختار : من ختر ، وهو أبشع وأقبح الغدر والخديعة . يقال : فلان خاتر وختار وختير ، إذا كان شديد الغدر والنقض لعهوده ، ومنه قول الشاعر :

وإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

والكفور : هو الشديد الكفران والجحود لنعم الله - تعالى — .

أى : وما يجحد بآياتنا الدالة على قدرتنا ورحمتنا ، إلا من كان كثير النقض لعهودنا ، شديد النكران لنعمنا .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بدعوة الناس إلى الاستعداد ليوم الحساب وإلى مراقبة الله — تعالى — فى كل أحوالهم لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء منها ، فقال :

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٣

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ
وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ
غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

والمعنى : « يأيها الناس اتقوا ربكم » بأن تطيعوه ولا تعصوه ، وبأن تشكروه ولا تكفروه ، « واخشوا يوماً » أى : وخافوا أهوال يوم عظيم

« لا يجزى والد عن ولده » أى : لا يستطيع والد أن ينفع ولده بشىء من النفع فى هذا اليوم ، أو أن يقضى عنه شيئاً من الأشياء .

« ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » أى : ولا يستطيع المولود — أيضاً — أن يدفع عن والده شيئا مما يحتاجه منه

وخص — سبحانه — الوالد والمولود بالذكر ؛ لأن رابطة المحبة والمودة بينهما هى أقوى الروابط وأوثقها ، فإذا انتفى النفع بينهما فى هذا اليوم ، كان انتفاؤه بالنسبة لغيرهما من باب أولى .

وقوله : « إن وعد الله حق » أى : إن ما وعد الله — تعالى — به عباده من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق وثابت ثبوتاً لا يقبل الشك أو التخلف .

وما دام الأمر كذلك ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، أى : فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها وشهواتها ومتعها ، ولا تشغلنكم عن طاعة الله — تعالى — ، وعن حسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد ، فإن الكيس الفطن هو الذى يتزود لهذا اليوم بالإيمان الحق ، و بالعمل الصالح النافع .

« ولا يغرنكم بالله الغرور » أى : ولا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله ، وعن امتثال أمره .

فالمراد بالغرور : الشيطان ، أو كل ما يصرفك عن طاعة الله — تعالى — :

قال الآلوسى : « ولا يغرنكم بالله الغرور » أى : الشيطان ، كما روى عن ابن عباس وغيره ، بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم . . . وعن أبى عبيدة . كل شىء غرك حتى تعصى الله — تعالى — فهو غرور سواء أكان شيطاناً أم غيره وعلى ذلك ذهب الراغب فقال : الغرور كل مايغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان . . . وأصل الغرور : من غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته ، أى : غفلته ، ونال منه ما يريد ، والمراد به الخداع .

والظاهر أن « بالله » صلة « يغرنكم » أى : لا يخدعنكم بذكر شىء من شئونه — تعالى — ، يجركم بها على معاصيه — سبحانه — (١) .

ثم بين — سبحانه — جانباً من الأمور التى استأثر عز وجل بعلمها فقال : « إن الله عنده علم الساعة » أى : عنده وحده علم وقتها ، وعلم قيامها ، كما قال — تعالى — : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٠٨

إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو . . »(١).

« وينزل الغيث» أى : وينزل بقدرته المطر ، ويعلم وحده وقت نزوله .

« ويعلم مافى الأرحام » أى : ويعلم مافى أرحام الأمهات من ذكر أو أنثى .

« وما تدرى نفس » من النفوس كائنة من كانت « ماذا تكسب غدا » من خير أو شر ، ومن رزق قليل أو كثير ، لأنها لا تملك عمرها إلى الغد .

« وما تدرى نفس » من النفوس — أيضاً — كائنة من كانت « بأى أرض تموت » أى ، بأى مكان ينتهى أجلها .

« إن الله » — تعالى — « عليم » بكل شىء « خبير » بما يجرى فى نفوس عباده .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار ، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم قرأ هذه الآية .

وعن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال للنبى — صلى الله عليه وسلم — : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماتلد ؟ وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ، فأنزل الله الآية(٢).

وهذه الأمور الخمسة من الأمور التى استأثر الله — تعالى — بها على سبيل العلم اليقينى الشامل المطابق للواقع . .

ولا مانع من أن يطلع الله — تعالى — بفضله وكرمه ، بعض أصفيائه على شىء منها .

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٧

وليست المغيبات محصورة فى هذه الخمسة ، بل كل غيب لا يعلمه إلا الله — تعالى — داخل فيما استأثر الله — تعالى — بعلمه ، وإنما خصت هذه الخمسة بالذكر لأنها من أمهات المغيبات ، أو لأن السؤال كان عنها .

وما يخبر به المنجم والطبيب وعلماء الأرصاد الجوية من الأمور التى لم تتكشف بعد ، فبناه على الظن لا على اليقين ، وعلى احتمال الخطأ والصواب

أما علم الله — تعالى — بهذه الأمور وغيرها ، فهو علم يقينى قطعى شامل لا يحتمل الظن أو الشك أو الخطأ .

وصدق الله إذ يقول : وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « لقمان » نسأل الله — تعالى — أن يجعله خالصا لوجهه، ونافعا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

القاهرة — مدينة نصر — كتبه الراجى عفو ربه
الخميس : ٥ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ — محمد سيد طنطاوى
٢٥ من أبريل سنة ١٩٧٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمه	١٣٣
١	ألم ..	١٣٦
٦	ومن الناس من يشترى لهو الحديث . .	١٤٧
٨	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . .	١٤٧
١٢	ولقد آتينا لقمان الحكمة . .	١٥٣
٢٠	ألم تروا أن الله سخر لكم . .	١٥٦
٢٢	ومن يسلم وجهه لله وهو محسن . .	١٦٦
٢٧	ولو أن مافى الأرض من شجرة . .	١٧٢
٢٩	ألم تر أن الله يولج . .	١٧٣
٣٣	يأيها الناس اتقوا ربكم . .	١٨٠

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة السجدة

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

"رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

١ — سورة « السجدة » هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف وكان نزولها بعد سورة « المؤمنون » ، أي : أنها من أواخر السور المكية .

قال الآلوسي ماملخصه : وتسمى — أيضاً — بسورة « المضاجع » .
وهي مكية ، كما روى عن ابن عباس .

وروى عنه أنها مكية سوى ثلاث آيات ، تبدأ بقوله - تعالى - : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا . . » وهي تسع وعشرون آية في البصرى . وثلاثون آية في المصاحف الباقية . . »(١) .

ومن فضائل هذه السورة مارواه الشيخان عن أبي هريرة قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم . يقرأ في الفجر يوم الجمعة « ألم . تنزيل » السجدة . و « هل أتى على الإنسان » .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : « كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لاينام حتى يقرأ ، هذه السورة ، وسورة تبارك(٢) .

٢ — وتبدأ هذه السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم، وببيان أنه من عند الله — تعالى — ، وبالرد على الذين زعموا أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد افتراه من عند نفسه . .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢١ ص ١١٥
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٣

ثم تسوق ألوانا من نعم الله – تعالى – على عباده ، ومن مظاهر قدرته ، وبديع خلقه ، وشمول إرادته ، وإحسانه لكل شىء خلقه « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . . . »

٣ – ثم تذكر السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من شبهات المشركين حول البعث والحساب ، وترد عليها بما يبطلها ، وتصور أحوالهم عندما يقفون أمام خالقهم للحساب تصويرا مؤثرا مرعيا قال – تعالى – : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . . . »

٤ – وبعد أن تذكر السورة الكريمة ما أعده الله – تعالى – للمؤمنين من ثواب لا تعلمه نفس من الأنفس ، وما أعده للكافرين من عقاب .. بعد كل ذلك تبين أن عدالته – تعالى – قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار وإنما يجازى كل نفس على حسب عمله .

قال – تعالى – : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ، لا يستوون » .

٥ – ثم تشير السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله – تعالى – لنبيه موسى – عليه السلام – من نعم ، وما منحه الصالحين من قومه من منن ، لكى يتأسى بهم المؤمنون « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه ، وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون » .

٦ – ثم حضت السورة الكريمة المشركين على التدبر والتفكر فى آيات الله – تعالى – ، ونهتهم عن الجحود والعناد ، وحكت جانبا من سفاهاتهم ، وأمرت النبى – صلى الله عليه وسلم – بأن يرد عليهم ، وأن يمضى فى طريقه دون أن يعير سفاهاتهم اهتماما .

قال ـ تعالى ـ : ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ، فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » .

٧ ـــ وبعد فهذا عرض إجمالي لسورة « السجدة » ، ومنه نرى أنها زاخرة بالأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى أن القرآن حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

٣ من شعبان ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥/٤/٢٣ م　　　　كتبه الراجي عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوي

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ
يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ
مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ
مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ
إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾
الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾
ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ
فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

سورة السجدة من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى. وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء فى ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور: البقرة، وآل عمران، والأعراف . .

وقلنا ماملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى إفتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك الكافرين المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ماتؤلفون منه كلامكم ومنظوما من حروف ، وهى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله . .

ومع كل هذا التساهل فى التحدى ، فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت بذلك أن القرآن من عند الله — تعالى — وحده .

وقوله - تعالى - : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » بيان لمصدر القرآن الكريم وأنه لاشك فى كونه من عند الله - عز وجل -

وقوله : « تنزيل الكتاب » مبتدأ ، وخبره « من رب العالمين » وجملة « لا ريب فيه » معترضة بينهما ، أو حال من الكتاب . (١) .

أى : تنزيل هذا الكتاب عليك - أيها الرسول الكريم - كائن من رب العالمين ، وهذا أمر لاشك فيه ، ولا يخالطه ريب أو تردد عند كل عاقل .

وعجل - سبحانه - بنفى الريب ، حيث جعله بين المبتدأ والخبر ، لبيان أن

---

(١) راجع حاشية الجمل جـ٣ ص ٤١٢

هذه القضية ليست محلا للشك أو الريب ، وأن كل منصف يعلم أن هذا القرآن من رب العالمين .

و « أم » فى قوله — تعالى — : « أم يقولون افتراه » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة .

والاستفهام للتعجيب من قولهم وإنكارهم .

والافتراء : الاختلاق . يقال : فلان افترى الكذب ، أى : اختلقه . وأصله من الفرى بمعنى قطع الجلد ، وأكثر ما يكون للإفساد .

والمعنى : بل أيقول هؤلاء المشركون ، إن محمداً — ﷺ — ، قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه . .

وقوله — عز وجل — : « بل هو الحق من ربك » رد على أقوالهم الباطـــلة .

أى : لا تستمع — أيها الرسول الكريم — إلى أقاويلهم الفاسدة ، فإن هذا القرآن هو الحق الصادر إليك من ربك — عز وجل —

ثم بين — سبحانه — الحكمة فى إرساله — صلى الله عليه وسلم — وفى إنزال القرآن عليه فقال : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » .

والإنذار : هو التخويف من ارتكاب شىء تسوء عاقبته . و « ما » نافية و « نذير » فاعل « أتاهم » و « من » مزيدة للتأكيد .

أى : هذا القرآن — يا محمد — هو معجزتك الكبرى ، وقد أنزلناه إليك لتنذر قوما لم يأتهم نذير من قبلك بما جئتهم به من هدايات وإرشادات وآداب .

وقد فعلنا ذلك رجاء أن يهتدوا إلى الصراط المستقيم ، ويستقبلوا دعوتك بالطاعة والاستجابة لما تدعوهم إليه .

ولا يقال : إن إسماعيل - عليه السلام - قد أرسل إلى آباء هؤلاء العرب الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، لأن رسالة إسماعيل قد اندرست بطول الزمن ، ولم ينقلها الخلف عن السلف فكانت رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى قومه ، جديدة في منهجها وأحكامها وتشريعاتها .

ثم أثنى - سبحانه على ذاته ، بما يستحقه من إجلال وتعظيم وتقديس فقال : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام .. »

والأيام جمع يوم ، واليوم فى اللغة مطلق الوقت ، أى : فى ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى -

وهو - سبحانه - قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة أو لحظة ، ولكنه - عز وجل - خلقهن فى تلك الأوقات ، لكى يعلم عباده التأنى والتثبت فى الأمور .

قال القرطبى : « ستة أيام » قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : « إن اليوم من الأيام الستة ، التى خلق الله فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سنى الدنيا . . »(١)

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وليست هذه الأيام من أيام هذه الأرض التى نعرفها ، إذ أيام هذه الأرض ، مقياس زمنى ناشىء من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلا ونهارا على هذه الأرض ... وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٨٦ .

أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة فى القرآن ، فعلمها عند الله ، ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها ، فهى من أيام الله التى يقول عنها: « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »(١) .

وقوله — سبحانه — : « ثم استوى على العرش » إشارة إلى استعلائه وهيمنته على شئون خلقه .

وقال بعض العلماء : وعرش الله — تعالى — مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم.. وقد ذكر فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات.

أما الاستواء على العرش ، فذهب سلف الأمة ، إلى أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة إتصافه — سبحانه — بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى -

قال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات ، ومن غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هـــو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه . . .»(٢)

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٢١ ص ١٠ .

(٢) راجع تفسير صفوة البيان ص ٢٦٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

وقوله - سبحانه - : « مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون » أى : مالكم - أيها الناس - إذا تجاوزتم حدوده - عز وجل - «من ولى» أى : من ناصر ينصركم إن أراد عقابكم ، «ولا شفيع» يشفع لكم عنده لكى يعفو عنكم ، أفلا تعقلون هذه المعانى الواضحة ، وتسمعون هذه المواعظ البليغة ، التى من شأنها أن تحملكم على التذكر والاعتبار والطاعة التامة لله رب العالمين .

فالآية الكريمة جمعت فى توجيهاتها الحكيمة ، بين مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وبين الترهيب من معصيته ومخالفة أمره ، وبين الحض على التذكر والاعتبار .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ماسبق أن وصف به ذاته ، صفات أخرى تليق بجلاله ، فقال : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » .

وقوله - تعالى - : « يدبر » من التدبير بمعنى الإحكام والإتقان ، والمراد به هنا : إيجاد الأشياء على هذا النحو البديع الحكيم الذى نشاهده وأصل التدبير : النظر فى أعقاب الأمور محمودة العاقبة .

وقوله : « يعرج » من العروج بمعنى الصعود والارتفاع والصيرورة إليه - تعالى - .

والضمير فى «إليه» يعود إلى الأمر الذى دبره وأحكمه - سبحانه -

أى : أن الله - تعالى - هو الذى يحكم شئون الدنيا السماوية والأرضية إلى أن تقوم الساعة ، وهو الذى يحملها على تلك الصورة البديعة المتقنة ، ثم تصعد إليه - تعالى - تلك الأمور والشئون المدبرة «فى يوم»

عظيم هو يوم القيامة « كان مقداره ألف سنة مما تعدون» من أيام الدنيا.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : من السماء إلى الأرض ، متعلقان بقوله : « يدبر » ومن ابتدائية ، وإلى انتهائية ، أى : « يريده - تعالى - على وجه الاتقان ومراعاة الحكمة ، منزلا له من السماء إلى الأرض . وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه ، فإن أسبابه سماوية من الملائكة وغيرهم .

وقوله : «ثم يعرج إليه » أى : ذلك الأمر بعد تدبيره ، وهذا العروج مجاز عن ثبوته فى علمه .. أو عن كتابته فى صحف الملائكة بأمره - تعالى -(١)

وقال بعض العلماء : وقد ذكر - سبحانه - هنا أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » .

وذكر فى سورة الحج «وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون».

وذكر سورة المعارج «تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » والجمع بين هذه الآيات من وجهين :

الأول : ماجاء عن ابن عباس من أن يوم الألف فى سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض ، ويوم الألف فى سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه - تعالى - ويوم الخمسين ألفاً - فى سورة المعارج - هو يوم القيامة .

الثانى : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ويدل لهذا الرأى قوله - تعالى - : « فذلك يوم عسير ، على الكافرين غير يسير » (٢) .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٢٠

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٣ ه للشيخ أمين الشنقيطى

أى : أن يوم القيامة يتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل فى حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل فى حاله أخرى خمسين ألف سنة

واسم الإشارة فى قوله : «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم» يعود إلى الله — تعالى — ، وهو مبتدأ ، وما بعده أخبار له — عز وجل — .

أى : ذلك الذى اتصف بتلك الصفات الجليلة ، وفعل تلك الأعمال المتقنة الحكيمة ، هو الله — تعالى — : «عالم الغيب والشهادة» أى : عالم كل ما غاب عن الحس ، وكل ما هو مشاهد له ، لا يخفى عليه شىء مما ظهر أو بطن «العزيز» الذى لا يغلبه غالب «الرحيم» بعباده .

«الذى أحسن كل شىء خلقه» أى : الذى أحكم وأتقن كل شىء خلقه وأوجده فى هذا الكون ، لأنه — سبحانه — أوجده على النحو الذى تقتضيه حكمته ، وتستدعيه مصلحة عباده .

قال الشوكانى : وقرأ الجمهور «خلقه» - بفتح اللام - على أنه فعل ماض صفة لشىء ، فهو فى محل جر ، أو صفة للمضاف فيكون فى محل نصب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ابن عامر : «خلقه» بسكون اللام ، وفى نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلا من «كل شىء» بدل اشتمال ، والضمير عائد على كل شىء ، وهذا هو المشهور ... » (١) .

والمراد بالانسان فى قوله — تعالى — : «وبدأ خلق الإنسان من طين» آدم - عليه السلام - أى : وبدأ خلق أبيكم آدم من طين ، فصار على أحسن صورة ، وأبدع شكل . «ثم جعل نسله» أى : ذريته ، وسميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٦ ص ٢٤٩

« من سلالة » أى : من خلاصة ، وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية .

« من ماء مهين » أى : ممتهن لا يهتم بشأنه ، ولا يعتنى به ، والمقصود به : المنى الذى يخرج من الرجل .

« ثم سواه » أى : هذا المخلوق الذى أوجده من طين ، أو من ماء مهين. والمراد : ثم عدل خلقه ، وسوى شكله ، وناسب بين أعضائه ، وأتمه فى أحسن صورة .

« ونفخ فيه — سبحانه — « من روحه » أى : من قدرته ورحمته . التى صار بها هذا الإنسان إنسانا كاملا فى أحسن تقويم .

وإضافة الروح إليه — تعالى — للتشريف والتكريم لهذا المخلوق ، كما فى قولهم بيت الله .

« وجعل لكم » بعد ذلك « السمع » الذى تسمعون به « والأبصار » التى تبصرون بها « والأفئدة » التى تعقلون بها ، وتحسون الأشياء بواسطتها .

وقوله : « قليلا ما تشكرون » بيان لموقف بنى آدم من هذه النعم المتكاثرة والمتنوعة ، ولفظ « قليلا » منصوب على أنه صفة لمحذوف وقع معمولا لتشكرون .

أى : شكرا قليلا تشكرون ، أو زمانا قليلا تشكرون .

وهكذا بنو آدم — إلا من عصم الله — ، أوجدهم الله — تعالى — بقدرته ، وسخر لمنفعتهم ومصلحتهم ما سخر من مخلوقات ، وصانهم فى كل مراحل خلقهم بأنواع من الصيانة والحفظ . . . ومع ذلك فقليل منهم هم الذين يشكرونه — عز وجل — على نعمه ، وصدقه — سبحانه — حيث يقول « وقليل من عبادى الشكور » .

ثم حكى - سبحانه - شبهات المشركين ورد عليها ، وصور أحوالهم الأليمة عند ما تقبض الملائكة أرواحهم ، فقال - تعالى - :

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ
بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي
وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ
رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا
مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ
مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا
نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وقالوا أئذا ضللنا في الأرض » هذا قول منكري البعث أي : هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا ، وأصله من قول العرب : ضل الماء في اللبن إذا ذهب ، والعرب تقول للشيء غلب عليه غيره حتى خفي فيه أثره : قد ضل . . » (١) .

أي : وقال الكافرون على سبيل الإنكار ليوم القيامة وما فيه من حساب أئذا صارت أجسادنا كالتراب واختلطت به ، أفنعاد إلى الحياة مرة أخرى ، ونخلق خلقاً جديداً . . ؟

وقوله - سبحانه - : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » إضراب وانتقال من

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٩١ .

حكاية كفرهم بالبعث والحساب إلى حكاية ماهو أشنع من ذلك وهو كفرهم بلقاء الله - تعالى - الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم . . .

أى : بل هم لانطماس بصائرهم، واستيلاء العناد والجهل عليهم، بلقاء ربهم يوم القيامه ، كافرون جاحدون ، لأنهم قد استبعدوا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، مع أن الله - تعالى - قد أوجدهم ولم يكونوا شيئا مذكورا .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن مردهم إليه لامحالة بعد أن يقبض ملك الموت أرواحهم فقال : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون » .

وقوله « يتوفاكم » من التوفى . وأصله أخذ الشىء وافيا تاما. يقال: توفاه الله ، أى : استوفى روحه وقبضها ، وتوفيت مالى بمعنى استوفيته والمراد بملك الموت : عزرائيل .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد على هؤلاء الجاحدين: سيتولى قبض أرواحكم عقب انتهاء آجالكم ملك الموت الذى كلفه الله - تعالى - بذلك ثم إلى ربكم ترجعون ، فيجازيكم بما تستحقونه من عقاب ، بسبب كفركم وجحودكم .

وأسند - سبحانه - هنا التوفى إلى ملك الموت ، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح . وأسنده إلى الملائكة فى قوله - تعالى - « فكيف إذا توفتهم الملائكة ، لأنهم أعوان ملك الموت الذين كلفهم الله بذلك .

وأسنده - سبحانه - إلى ذاته فى قوله :« الله يتوفى الأنفس حين موتها» لأن كل شىء كائنا ما كان ، لايكون إلا بقضائه وقدره .

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ، عندما يقفون للحساب، تصويرا مرعبا مخيفا فقال: «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم» .

وجواب « لو » محذوف. والتقدير: لرأيت شيئا تقشعر من هوله الأبدان .

وقوله : « ناكسوا » من النكس ، وهو قلب الشيء على رأسه كالتنكيس.

وفعله من باب نصر - والخطاب يصح أن يكون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أو لكل من يصلح له .

أي : ولو ترى - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المجرمين الذين أنكروا البعث والجزاء ، وهم يقفون أمام خالقهم بذلة وخزي ، لحسابهم على أعمالهم . . لو ترى ذلك لرأيت شيئا ترتعد له الفرائص ، وتهتز منه القلوب.

وقوله : « أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » حكاية لما يقولونه في هذا الموقف العصيب .

أي : يقولون بذلة وندم : ياربنا نحن الآن نبصر مصيرنا ، ونسمع قولك ونندم على ما كنا فيه من كفر وضلال ، « فارجعنا » إلى الدنيا ، لكي « نعمل » عملا « صالحا إنا موقنون » الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق ، وأن البعث حق ، وأن الجزاء حق ، وأن الجنة حق وأن النار حق .

ولكن هذا الإيقان والاعتراف منهم ، قد جاء في غير أوانه ، ولذا لا يقبله - سبحانه - منهم ، ولذا عقب - سبحانه - على ما قالوه : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . . . » .

أي : ولو شئنا أن نؤتي كل نفس رشدها وهداها وتوفيقها إلى الإيمان ، لفعلنا ، لأن إرادتنا نافذة ، وقدرتنا لا يعجزها شيء .

ولكن حق القول مني » أي : ولكن ثبت وتحقق قولي .

« لأملأن جهنم من الجنة » أي من الجن وسموا بذلك لاستتارهم عن الأنظار .

ومن « الناس أجمعين » بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء ، إلا أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن الذين سبق في علمه أنهم يؤثرون الضلالة على الهداية ، لسوء استعدادهم ، يكون مصيرهم إلى النار ، وأما الذين

آثروا الهداية على الضلالة لنقاء نفوسهم، وكمال استعدادهم، فيكون مصيرهم إلى جنة عرضها السموات والأرض .

كما أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن يميز الإنسان على غيره، بأن يجعل له طبيعة خاصة يملك معها اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . كما قال — تعالى — « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل، إما شاكرا وإما كفورا » .

ثم بين — سبحانه — ما يقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى بهم في جهنم فقال — تعالى — : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » .

والذوق حقيقة لإدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه . والتعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم بهم .

والفاء في قوله : « فذوقوا » لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله والباء للسببية . والمراد بالنسيان لازمه، وهو الترك والإهمال .

أي : ويقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى بهم في النار : ذوقوا لهيبها وسعيرها بسبب نسيانكم وإهمالكم وجحودكم ليوم القيامة وما فيه من حساب، وإننا من جانبنا قد أهملناكم وتركناكم، بسبب إصراركم على كفركم، وذوقوا العذاب الذي أنتم مخلدون فيه بسبب أعمالكم القبيحة في الدنيا جزاء وفاقا .

وكرر — سبحانه — لفظ « ذوقوا » على سبيل التأكيد ، وزيادة التقريع والتأنيب .

ثم تترك السورة الكريمة هؤلاء المجرمين يذوقون العذاب، وتنتقل إلى الحديث عن مشهد آخر، عن مشهد يشرح النفوس، ويبهج القلوب، إنه مشهد المؤمنين الصادقين، وما أعد الله - تعالى - من ثواب قال - تعالى - :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا
وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ سجدة ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ
ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾
فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟
فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ
إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ
فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

أى : « إنما يؤمن » ويصدق « بآياتنا » الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، أصحاب النفوس النقية الصافية ، الذين إذ ذكروا بها ، أى : بهذه الآيات .

« خروا سجدا » لله - تعالى - من غير تردد « وسبحوا بحمد ربهم » أى: ونزهوه عن كل مالا يليق به — عز وجل —

« وهم لا يستكبرون » عن طاعته - سبحانه - وعن الانقياد لأمره ونهيه

ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى عبادتهم وتقربهم إلى الله ، تصويرا بديعا فقال . « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » .

والتجافى : التحرك إلى جهة أعلى . وأصله من جفا فلان السرج عن فرسه ، إذا رفعه ، ويقال تجافى فلان عن مكانه ، إذا انتقل عنه .

والجنوب : جمع جنب ، وأصله الجارحة ، والمراد به الشخص .

والمضاجع : جمع مضجع ، وهو مكان الاتكاء للنوم .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الصادقين ، تتنحى وترتفع أجسامهم ، عن أماكن نومهم ، وراحتهم ، حالة كونهم يدعون ربهم بإخلاص وإنابة « خوفا » من سخطه عليهم ، « وطمعا » فى رضاه عنهم .

« ومما رزقناهم » من فضلنا وخيرنا « ينفقون » فى وجوه البر والخير .

وقوله - سبحانه - : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين . . » بيان للعطاء الجزيل ، والثواب العظيم .

أى : فلا تعلم نفس من النفوس سواء أكانت لملك مقرب، أم لنبى مرسل ما أخفاه الله — تعالى — لهؤلاء المؤمنين المتهجدين بالليل والناس نيام ، من ثواب تقر به أعينهم ، وتسعد به قلوبهم ، وتبتهج له نفوسهم . .

وهذا العطاء الجزيل إنما هو بسبب أعمالهم الصالحة فى الدنيا .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة صورة مشرقة لعباد الله الصالحين ، والثواب الذى لاتحيط به عبارة ، والذى أكرمهم الله — تعالى — به .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، عددا من الأحاديث الواردة فى فضل قيام الليل ، منها مارواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : كنت مع النبى (ﷺ) فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، ويباعدنى من النار ، فقال : لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم قرأ (ﷺ) : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً . . .

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله (ﷺ) : إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله (ﷺ) إن الله — تعالى — قال : أعددت لعبادى الصالحين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (١) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك أن عدالته قد إقتضت عدم التسوية بين

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٥

الأخيار والأشرار ، وإن كل إنسان إنما يجازى يوم القيامة على حسب عمله فقال — تعالى — : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً » .

والاستفهام فى قوله : « أفمن كان مؤمناً .. للإنكار والفسوق : الخروج عن طاعة الله .

أى : أفمن كان فى هذه الدنيا مؤمناً بالله حق الإيمان ، كمن كان فيها فاسقاً وخارجاً عن طاعة الله — تعالى — وعن دينه الذى ارتضاه لعباده؟

كلا ، إنهم لا يستوون لا فى سلوكهم وأعمالهم ، ولا فى جزائهم الدنيوى أو الأخروى .

وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى شأن الوليد بن عقبة وعلى بن أبى طالب — رضى الله عنه — ، حيث قال الوليد لعلى : أنا أبسط منك لساناً ، وأحد سناناً ، واملأ فى الكتيبة جسداً ، فقال له على : أسكت فإنما أنت فاسق فنزلت هذه الآية (١) .

ثم فصل — سبحانه — حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الفاسقين ، فقال : « أما الذين آمنوا » بالله حق الإيمان « وعملوا » الأعمال « الصالحات »

« فلهم جنات المأوى » أى : فلهم الجنات التى يأوون إليها ، ويسكنون فيها « نزلا بما كانوا يعملون » والنزل : أصله ما يهيأ للضيف النازل من الطعام والشراب والصلة ، ثم عمم فى كل عطاء .

أى : فلهم جنات المأوى ينزلون فيها نزولا مصحوباً بالتكريم والتشريف جزاء أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا .

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٠٤

« وأما الذين فسقوا » أي : خرجوا عن طاعتنا ، وعن دعوة رسولنا — صلى الله عليه وسلم —

« فمأواهم النار » أي : فمنزلتهم ومسكنهم ومستقرهم النار وبئس القرار .

« كلما أرادوا أن يخرجوا منها » هربا من لهيبها وسعيرها وعذابها .

« أعيدوا فيها » مرغمين مكرهين ، وردوا إلينا مهانين مستذلين .

« وقيل لهم » على سبيل الزجر والتأنيب وزيادة الحسرة في قلوبهم .

« ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون » في الدنيا ، وتستهزئون بمن ينذركم به ، ويخوفكم منه .

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى » أي الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا ، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة .

« دون العذاب الأكبر » أي : الأشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب الآخرة .

« لعلهم يرجعون » عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان .

ثم بين — سبحانه — حال من يدعي إلى الهدي فيعرض عنه ، فقال : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها » .

أي : لا أحد أشد ظلما وكفرا ممن ذكره المذكر بالآيات الدالة على وحدانية الله — تعالى — وقدرته ، وعلى أن دين الإسلام هو الحق ، ثم أعرض عنها جحودا وعنادا .

« إنا من المجرمين منتقمون » أى : إنا من أهل الإجرام والجحود لآياتنا منتقمون إنتقاما يذلهم ويخزيهم .

قال صاحب الكشاف : « ثم » فى قوله (ثم أعرض عنها) الاستبعاد .

والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله، فى وضوحها و إنارتها و إرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها ، إستبعادا لتركه الإنتهاز . ومنه « ثم » فى بيت الحماسة :

لا يكشف الغماء إلا إبن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

إستبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها وإستيقنها وأطلع على شدتها .

فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون ؟ قلت: لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دل على إصابة الأظلم بالنصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الافادة(١) .

ثم أشارت السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله — تعالى — لنبيه موسى — عليه السلام — من نعم ، وما منحه للصالحين من قومه من منن، فقال — تعالى — :

« ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه »

والمراد بالكتاب فى قوله ـ تعالى ـ : « ولقد آتينا موسى الكتاب» التوراة التى أنزلها — سبحانه — لتكون هداية لبنى إسرائيل .

قالوا : وإنما ذكر موسى لقربه من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووجود من كان على دينه إلزاما لهم ، وإنما لم يختر عيسى ـ عليه السلام ـ للذكر والاستدلال ، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥١٥ .

فكانوا يعترفوا بنبوة موسى - عليه السلام -(١)

والضمير المجرور فى قوله : « فلا تكن فى مرية من لقائه ، يعود إلى موسى على أرجح الأقوال — أو إلى الكتاب .

أى : آتينا موسى الكتاب فلا تكن — أيها الرسول الكريم — فى مرية أوشك من لقاء موسى للكتاب الذى أو حيناه إليه، بقبول ورضا وتحمل لتكاليف الدعوة به ، فكن مثله فى ذلك ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك دون أن يخشى أحدا سواه .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب » أى : جنس الكتاب « فلا تكن فى مرية » أى : شك « من لقائه » أى : من لقائك ذلك الجنس .

وحمل بعضهم « الكتاب » على العهد ، أى الكتاب المعهود وهو التوراة.

ونهيه — صلى الله عليه وسلم — عن أن يكون فى شك ، المقصود به أمته ، والتعريض بمن اتصف بذلك .

وقيل الكتاب ، المراد به التوراة ، وضمير « لقائه » عائد إليه من غير تقدير مضاف . ولقاء مصدر مضاف إلى مفعوله ، وفاعله موسى : فلا تكن فى مرية من لقاء موسى الكتاب ، أو مضاف إلى فاعله ، ومفعوله موسى . أى : من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه . .(٢) .

وهذا الرأى الأخير الذى عبر عنه الآلوسى —رحمه الله — بقوله «وقيل» هو فى رأينا أرجح الآراء ، وأقربها إلى الصواب ، لبعده عن التكلف .

---

(١) حاشيه الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤١٩

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٣٧

قال الجمل فى حاشيته ، بعد أن ساق ستة أقوال فى عودة الضمير فى قوله « من لقائه » : « وأظهرها أن الضمير إما لموسى ، وإما للكتاب ، أى : لا ترتب فى أن موسى لقى الكتاب وأنزل عليه » (١) .

قال صاحب الكشاف : والضمير فى « لقائه » له — أى لموسى — ، ومعناه : إنا آتينا موسى — عليه السلام — مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقناه مثل ما لقناك من الوحى ، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ، ولقيت نظيره كقوله — تعالى — : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك (٢) .

وقوله — تعالى — : « وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » أى : وجعلنا الكتاب الذى أنزلناه على نبينا موسى — عليه السلام — هداية لبنى إسرائيل إلى طريق الحق والسداد .

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » والأئمة : جمع إمام ، وهو من يقتدى به فى الأمور المختلفة ، والمراد بهم هنا : من يقتدى بهم فى وجوه الخير والبر .

أى : وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة فى الخير والصلاح ، يهدون غيرهم إلى الطريق الحق ، بأمرنا وإرادتنا وفضلنا ، وقد وفقناهم لذلك حين صبروا على أداء ما كلفناهم به من عبادات ، وحين تحملوا الشدائد والمحن فى سبيل إعلاء كلمتنا .

فأنت ترى أن جعلهم أئمة فى الخير لم يكن اعتباطاً ، وإنما كان بسبب

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤١٩

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ صـ ٥١٦

صبرهم على الأذى ، وعلى مشاق الدعوة إلى الحق ، وعلى كل أمر يستلزم الصبر وحبس النفس .

وفى ذلك إرشاد وتعليم للمسلمين ، بأن يسلكوا طريق الأئمة الصالحين ، ممن كانوا قبلهم، وأن يبلغوا دعوة الله إلى غيرهم بصبر ويقين.

وقوله – سبحانه – « وكانوا بآياتنا يوقنون » زيادة فى مدحهم ، وفى تقرير أنهم أهل للإمامة فى الخير .

أى : وكانوا بسبب إدراكهم السليم لمعانى آياتنا : يوقنون إيقانا جازما بأنهم على الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبأنهم متبعون لشريعة الله – تعالى – التى لا يضل من اتبعها وسار على نهجها .

ثم أشار – سبحانه – إلى أن بنى إسرائيل جميعاً لم يكونوا كذلك وإنما كان منهم الأخيار والأشرار ، وأنه – تعالى – سيحكم بين الجميع يوم القيامة بحكمه العادل ، فقال : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

أى : إن ربك – أيها الرسول الكريم – هو وحده الذى يتولى القضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا من أمور متنوعة ، على رأسها ما يتعلق بالأمور الدينية .

ثم يسوق سبحانه – فى أواخر السورة ما من شأنه أن يهدى الضالين إلى الصراط المستقيم ،وما يرشدهم إلى مظاهر نعمه عليهم ، وما يزيد النبى (ﷺ) ثباتاً على ثباته ، ويقيناً على يقينه ، فيقول – عز وجل – :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ
أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « أولم يهد لهم كم أهلكنا ... » لإنكار عدم اهتدائهم إلى ماينفعهم مع وضوح أسباب هذا الاهتداء ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والخطاب للمشركين وعلى رأسهم كفار مكة ، و « كم » خبرية بمعنى كثير فى محل نصب لأهلكنا .

والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون عما أصاب الظالمين من قبلهم ، ولم يتبين لهم ـ لانطماس بصائرهم ـ أننا قد أهلكنا كثيراً من أهل الأزمان السابقة من قبلهم ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، وإيثارهم الكفر على الإيمان

وقوله ـ تعالى ـ « يمشون فى مساكنهم » حال من الضمير فى « حالهم » ، لتسجيل أقصى أنواع الجهالة والعناد عليهم .

أى : أبلغ بهم الجهل والعناد أنهم لم يعتبروا بالقرون المهلكة من قبلهم . مع أنهم يمشون فى مساكن هؤلاء السابقين ، ويمرون على ديارهم مصبحين وممسين ، ويرون بأعينهم آثارهم الدارسة ، وبيوتهم الخاوية على عروشها

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بما يزيد فى تبكيتهم وتقريعهم فقال : « إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » .

أى : إن فى ذلك الذى يرونه من مصارع الغابرين ، وآثار الماضين ، لآيات بينات ، وعظات بليغات ، فهلا تدبروا فى ذلك ، واستمعوا إلى صوت الحق بتعقل وتفهم ؟

فقوله — تعالى — : «أفلا يسمعون » حض لهم على الاستماع إلى الآيات الدالة على سوء عاقبة الظالمين ، بتدبر وتعقل واتعاظ ، وتحول من الباطل إلى الحق ، قبل أن يحل بهم ما حل بأهل الأزمنة الغابرة .

ثم نبههم - سبحانه — إلى نعمة من نعمه الكثيرة فقال : « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا ، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » والأرض الجرز : هى الأرض اليابسة التى جرز نباتها وقطع ، إما لعدم نزول الماء عليها ، وإما لرعيه منها .

قال القرطبى ماملخصه : والأرض الجرز هى التى جرز نباتها أى : قطع، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأزيل، ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز .

وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله ، وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شىء تجده ، وسيف جراز، أى : قاطع . . »(١) .

أى : أعموا ولم يشاهدوا بأعينهم « أنا نسوق » بقدرتنا ورحمتنا « الماء » الذى تحمله السحب « إلى الأرض الجرز » أى : اليابسة الخالية من النبات ، فينزل عليها .

« فنخرج به » أى : فنخرج بهذا الماء النازل على الأرض القاحلة « زرعا »

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١١٠

كثيرا نافعا ، تأكل منه ، أى : من هذا الزرع ، أنعامهم ، أى : تأكل منه ما يصلح لأكلها كالأوراق والأغصان وما يشبه .

وقوله ، وأنفسهم ، معطوف على أنعامهم . أى : تأكل أنعامهم من الزرع ما يناسبها ، ويأكل منه الناس ما يناسبهم كالبقول والحبوب .

وقدم ـ سبحانه ـ الأنعام على بنى آدم للترقى من الأدنى إلى الأشرف

وقوله ـ تعالى ـ ، أفلا يبصرون ، حض لهم على التأمل فى هذه النعم ، والحرص على شكر المنعم عليها ، وإخلاص العبادة له .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما كان عليه المشركون من غرور واستخفاف بالوعيد فقال : ، ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ،

والمراد بالفتح : الحكم والقضاء والفصل فى الخصومة بين المتخاصمين ، ومنه قوله ـ تعالى ـ حكاية عن شعيب ـ عليه السلام ـ : ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، .

أى : ، احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين ، .

أى : ويقول المشركون للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأصحابه على سبيل الاستهزاء ، واستعجال العقاب : متى هذا الذى تحدثوننا عنه من أن الله ـ تعالى ـ سيفصل بيننا وبينكم ، ويجعل لكم النصر ولنا الهزيمة ؟

لقد طال انتظارنا لهذا اليوم الذى يتم فيه الحكم بيننا وبينكم ، فإن كنتم صادقين فى قولكم ، فادعوا ربكم أن يعجل بهذا اليوم .

وهنا يأمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد عليهم بما يخرسهم فيقول : ، قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون .

أى : قل ـ أيها الرسول ـ فى الرد على هؤلاء الجاهلين المغرورين : إن يوم الفصل بيننا وبينكم قريب ، وهو آت لا محالة فى الوقت الذى يحدده الله ـ تعالى ـ ويختاره ، سواء أكان هذا اليوم فى الدنيا ، عندما تموتون على

الكفر ، أم فى الآخرة عندما يحل بكم العذاب ، ولا ينفعكم إيمانكم، ولا أنتم تمهلون أو تنظرون ، بل سينزل بكم العذاب سريعا و بدون مهلة .

وما دام الأمر كما ذكرنا لك — أيها الرسول الكريم — « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » .

أى : ياعرض عن هؤلاء المشركين ، وعن أقوالهم الفاسدة دون أن تلتفت إليها ، وامض فى طريقك أنت وأتباعك ، وانتظر النصرة عليهم بفضلنا وإرادتنا ، إنهم — أيضا — منتظرون ماسيئول إليه أمرك، وسيكون أمرك بخلاف ما يمكرون وما ينتظرون .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة السجدة ، نسأل الله — تعالى — أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة — مدينة نصر كتبه الراجى عفو ربه

مساء السبت : ٧ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ د . محمد سيد طنطاوى

٢٧/٤/ ١٩٨٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمه	١٨٧
١	الم ..	١٩٠
١٠	وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض ..	١٩٩
١٥	إنما يؤمن بآياتنا الذين ..	٢٠٣
١٨	أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ..	٢٠٣
٢٣	ولقد آتينا موسى الكتاب ..	٢٠٣
٢٦	أو لم يهد لهم كم أهلكنا ..	٢١٢

٧ ش الباب الأخضر المشهد الحسينى
القاهرة ت ٩٣٦٠٠٨